بسم الله الرحمن الرحيم

دراسات إسلامية

مجلة علمية سنوية محكمة

العدد الرابع عشر / ١٤٤٣هـ /٢٠٢٢م

منهج التفكير الغربي المادي من منظور نقدي إسلامي

د. عبداللطيف محمد سيدأحمد

الأستاذ المشارك بقسم العقيدة ـ كلية أصول الدين ـ جامعة أم درمان الإسلامية

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم

(١٣٧ - ١٨٠)

المستخلص :

يهدف هذا البحث للمقارنة بين منهج التفكير الغربي المادي ، الذي يقصر الحياة على ما يُدرك بالحواس الخمسة فقط.. وبين منهج التفكير الإسلامي، الذي يقدِّم تفسيراً شاملاً للكون والحياة والإنسان. اتبع الباحث منهجاً تاريخياً، استقرائياً، استنباطياً، تحليلياً. وتوصل الباحث إلى عدد من النتائج، من أهمها أن المنهج الغربي المادي يرتكز على الحضارة اليونانية الرومانية، وعلى العداء للكنيسة والدين عموماً، والإستعلاء العرقي لسيادة الجنس الأوربي وتميزة على سائر الأجناس. بينما يتسم التصور الإسلامي بالمساواة الكاملة بين الأجناس، والاعتماد على البعد الروحي والغيبي في تعامله مع الإنسان.

الكلمات المفتاحية : منهج ، تفكير ، مادي ، نقدي ، إسلامي.

Abstract:

This research aims to compare the Western Materialistic Thinking Approach, which limits life to what is just perceived by the five senses, and the Islamic Thinking Approach, which provides a comprehensive explanation of the universe, life and man. The researcher adopted the historical, inductive, deductive and analytical approach The research reached a number of findings, the most important ones are: The Western materialistic approach is based on the Greek-Roman civilization , hostility to the church and religion in general, and on the racial superiority of the European race and its distinction over all other races. The Islamic conception is characterized by complete equality between races and reliance on the spiritual and metaphysical dimensions in its dealings with humans.

Keywords: Methodology, Thinking, Materialism, Critical, Islamic.

المقدمة :

استمد الفكر الغربي مناهجه في التفكير من الفكر اليوناني والروماني ومن عدائه للكنيسة الكاثوليكية وتصوراتها ، ثم فيما بعد معارضة الكنيسة إطلاقا وأخيرا معارضة التصور الديني جملة وتفصيلاً . علما بأن التصورات الكنسية لم تكن تمثل النصرانية الحقة فهي محرفة بما أُدخل فيها من رواسب الوثنية الرومانية ، ثم بما أضافته الكنيسة والمجامع بعد ذلك لمجاراة الأحداث السياسية ومحاولة تجميع المذاهب الكثيرة في الدولة الرومانية في مذهب واحد مما جعل النصرانية تعبيرا عن التصور الكنسي أكثر مما هي تعبيرٌ عن الديانة النصرانية المنزلة من عند الله. وبدت مساوئ هذا التصور فيما بعد بما قامت به الكنيسة من قتل وتعذيب للمخالفين لتصوراتها الدينية والعلمية وذلك حينما وقف العلماء يصححونها موضّحين ما بها من تناقض للعقل والعلم . مما أدى للصراع بين العلم والدين وجعل الفكر الأوربي فيما بعد يتخذ موقفا عدائيا لا من الأفكار والتصورات الكنسية بل تجاوزها إلى منهج التفكير الديني جملة. واتجه الفكر الأوروبي لابتداع منهج للتفكير يقوم على العقل والحواس فقط والغرض الأساسي منه هو معارضة منهج التفكر الديني. وكمن هذا العداء لا في الموضوعات والفلسفات التي أنشأها الفكر الأوروبي بل في صميم هذا الفكر وفي المناهج التي يتخذها للمعرفة عموماً.

أسباب اختيار الموضوع :

جاء اختيار هذا الموضوع لالقاء الضوء على الأسس المعرفية والمرتكزات الفكرية لمنهج التفكير الغربي المادي وما يشوبه من مزالق عند إخضاعه لقواعد النقد المنهجي الإسلامي.

أهداف البحث :

يهدف البحث إلى تحقيق مقارنة بين منهج التفكير الغربي ومنهج التفكير الإسلامي وبيان شمول الأخير بإضافته للوحي مصدراً للمعرفة.

أهمية البحث :

تكمن أهمية البحث في توضيحه لمحدودية المنهج الفكري الغربي المادي الذي يرفض ما وراء الطبيعة ويستند على العقل والحواس فقط مصدرين للمعرفة في مقابل المنهج الإسلامي الذي يضيف لهذين المصدرين مصدراً اخر هو الوحي الذي يتيح للإنسان فهم الحياة بمجموعها المادي والغيبي.

منهج البحث :

يستخدم الباحث في هذه الورقة منهجا تاريخيا استقرائيا استنباطيا تحليليا تتبع فيه منهج التفكير الغربي المادي الذي يقوم على العقل والحواس وتطوره في حقب تاريخية مختلفة محللا ومعللا للأسباب والعوامل التي أدت لتعميق هذه الروح المادية وعزا ذلك لضعف الوازع الأخلاقي لغياب البعد الغيبي الذي يدعو له الوحي مصدراً أسمى للمعرفة كما يدعو له المنهج الإسلامي.

هيكل البحث :

يتكون البحث من مقدمة تحتوي على أسباب اختيار الموضوع، أهداف البحث ، أهمية البحث ، ومنهج البحث ، وأربعة مباحث يتناول الأول مصادر المعرفة في الفكر الغربي والفكر الإسلامي ويهتم الثاني بتسليط الضوء على منهج الكنيسة الكاثوليكية أما الثالث فقد ركز على دور الفلاسفة والمفكرين في أوربا في بلورة منهج التفكير الغربي المادي وعني الرابع بتوضيح منهج التفكير الإسلامي مع الإشارة للفرق بينه وبين المنهج الغربي المادي.

المبحث الأول

مصادر المعرفة في الفكر الغربي والفكر الإسلامي

مصادر المعرفة :

أجمعت المدارس الفلسفية عدا السفسطائيين على إمكانية المعرفة ولكنها تباينت في القديم والحديث في تناولها لقوي إدراك المعرفة وطرق اكتسابها إلى الآتي :

أولا : التجريبيون :

ذهب التجريبيون إلى أن مصدر المعرفة هو الخبرة الحسية ووسيلتها هي الحواس وتتكون معارف الإنسان من الإحساسات التي يتلقاها عن طريق حواسه المختلفة فمن فقد حاسة فقد العلم بما يقابلها من محسوسات فالعقل يولد صفحة بيضاء ولا توجد أفكار فطرية ، والمذهب الحسي من أقدم المذاهب الفلسفية حيث نجده عند الذريين.[١] والأبيقوريين.[٢] أما في العصر الحديث فإن من أبرز الداعين له هم :

(أ) هوبز[٣] (Hopes) : الوجود عند هوبز عبارة عن مادة وحركة وأن الأشياء التي ندركها بحواسنا هي الموجودة أما غير المحسوسة فلا وجود لها والإحساس هو حركة في الجسم الحاس تحدث بتأثير حركة أخرى صادرة من الجسم المحسوس وفسر المشاعر الإنسانية تفسيراً مادياً أرجعها إلى الدورة الدموية أما كلمات مثل العقل والمبادئ الأولية فقد اعتبرها ألفاظا جوفاء لا وجود لها.

---

(١) مدرسة فلسفية يونانية قديمة تؤمن بالمذهب الحسي وترجع الإدراك إلى ذرات صغيرة تدفعها الأجسام إلى العقل .

(٢) الأبيقوريين نسبة إلى الفيلسوف اليوناني أبيقور الذي عاش بين عامي ٣٤١-٢٧٠ ق. نفي وجود العناية الإلهية والأبيقورية تمثل النزعة المادية الحسية في العصر القديم .

(٣) فيلسوف إنجليزي عاش بين عامي ١٥٨٨م – ١٦٧٩ م يعتبر أحد فلاسفة عصر النهضة فصل بين الدين والفلسفة ورفض الفلسفة المدرسية واتجه اتجاهاً تجريبياً.

(ب) جون لوك (John Locke) : [٤] يرفض الأفكار القبلية والمعاني الفطرية ويرجع كل معرفة إلى الإحساس. فالإحساس سابق على التفكير ولا يوجد شيء في العقل ما لم يكن قبل في الحس والانطباعات الحسية ما هي إلا مجرد تلقٍ لكل ما يكتب عليها ثم يقوم العقل بعملية ربط لهذه الانطباعات الحسية لتكوين صورة ذهنية أو تكوين فكرة عن المدركات الحسية ، فالمعرفة عند لوك تعتمد على الإحساس والتفكير فلذا الخبرة عنده قسمان :

(أ) تقوم على تلقي الانطباعات الحسية من الظواهر الخارجية.

(ب) تجربة باطنية تقوم على ربط الإحساسات وتكوين الأفكار عنها والفرق بينهما في الدرجة والقوة والوضوح فإن الأفكار ترتد في أصلها إلى الانطباعات الحسية فالمعرفة عنده إدراك لما بين أي فكرتين من الاتفاق والاختلاف ، فالأفكار الحقيقية عنده هي تلك التي تتكون في الذهن على أساس من الواقع بينما الأفكار الوهمية أو المتخيلة هي تلك التي ليس لها ما يقابلها في الواقع فهي لا تعتمد في أساس وجودها على الطبيعة بل يقوم الخيال بتركيبها بغض النظر عما إذا كان هناك في الواقع ما تصدق عليها أو لا.

(ج) ديفيد هيوم : David Hume.[٥]

يرفض كل معرفة سابقة على التجربة كما يرفض التسليم بفطرية العقل . ويقسم المدركات الحسية إلى قسمين :

(١) آثار حسية. (٢) أفكار.

والأفكار عنده عبارة عن آثار حسية بعد غياب المؤثرات التي أحدثتها والفرق بينهما في القوة والوضوح فكأنما الأفكار آثار حسية تقادم عهدها فوهنت وقل وضوحها فلا تنشأ أفكار إلا إذا سبقتها آثار حسية فالأثر الحسي هو الذي نقيس به صحة الفكرة أو خطأها

---

[٤] سبق التعريف به .

[٥] فيلسوف إنجليزي عاش بين ١٧١١م – ١٧٧٦ أنكر وجود العلية أو الضرورة في الطبيعة

فالفكرة التي لا يمكن ردها إلى عناصرها أو أصولها الأولى من انطباعات حسية فكرة باطلة ولذلك فهو يرفض التلازم بين الحوادث الذي يطلق عليه السببية فهو ليس ضروريا ولا حتميا بل هو عادة ذهنية حتى لو شوهدت مضطردة آلاف المرات ويرجع ذلك إلى داعي المعاني الذي يصور لنا التجاور المكاني والتعاقب الزماني على صورة علة ضرورية Necessary connection حيث لا وجود لها في الواقع وقد سبق الإمام الغزالي.[٦] ديفيد هيوم في رفضه لضرورة السببية بأكثر من سبعة قرون حيث أوضح أننا لا نلحظ في مجرى الأحداث إلا حالة تتبعها حالة أخرى في العادة فإن يكن هذا التتابع سببية تجعل المسبب محتوما عليه أن يتبع سببه فذلك افتراض لا يلزم بالضرورة.

إن للإحساس حدودا دنيا وأخرى عليا وليس للإنسان أن يحس بما هو دون عتبة الإحساس من محسوسات كدبيب النمل مثلا أو ما يعلو في درجته كالمصاكاة الحادة التي تعجز الأذن عن سماعها وبذلك يتضح أن الحس يعجز أن يكون أداة للمعرفة التامة بحيث ينقل صورا كاملة للمحسوسات مما يقدح في موقف دعاة الحسية. والحواس أيضا كثيرا ما تخدعنا فيرى من يمشي في الصحراء ما يظنه ماء فيصحح العقل هذه المعرفة بخبرته بالمكان والجغرافيا ، وإذا كانت الخبرة الحسية هي أساس المعرفة كما يدعي التجريبيون كيف يعرف الطفل البديهيات قبل أي تجربة؟ كما أن المعرفة الحسية تنقصها الضرورة وتعميم الحكم لتصبح معرفة يقينية.

الضرورة :

تعني حتمية حدوث الفعل على الكيفية التي حدث بها ولا يكون على صورة غيرها فالمعرفة الحسية ليس فيها ما يقتضي ذلك وإنما هكذا حدث ويمكن أن يحدث بشكل آخر أما قضية مثل قولنا أ < ب < ج ... أ < ح فهي صادقة بالضرورة لأن صدقها لا يتوقف

---

(٦) هو أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ولد عام ١٠٥٩م بالقرب من طوس متكلم ومتصوف وفيلسوف ، أهم كتبه إحياء علوم الدين وتهافت الفلاسفة والمنقذ من الضلال ، توفي عام ١١١١م.

على تجاربنا الحسية فهي صادرة عن العقل لا عن الحواس وما يصدر عن العقل صدقه ضروري محتوم أما ما يصدر عن الحواس فصدقه يدل عليه الإحصاء والمشاهدة ولذا فصدقه مرهون بالتجربة.

تعميم الحكم :

لا يمكننا تعميم الحكم فيما نصل إليه من أحكام معتمدين على الحواس وحدها لأنه في هذه الحالة نحكم على أشياء لم تشهدها حواسنا لأنه ليس في مقدورنا استقصاء كل أفراد النوع الذي نحن بصدد الحكم عليه ، ولو وجدنا مبررا لإطلاق الحكم فهو للعقل وليس للحواس.

ثانيا : العقليون :

يعتبر العقليون العقل مصدرا للمعرفة أي إننا نبدأ شوط المعرفة من مبادئ عقلية غير مستمدة من الحواس ثم نبني عليها علما كاملا بكل ما في الوجود حيث لا تكون النفس لوحا مصقولا بل تكون حاصلة على المعارف الغريزية أو الفطرية وإنما يوقظها الحس فهي تتدرج من إدراكات غامضة إلى إدراكات واضحة إلى إدراكات متميزة فيعتبر بارمنيدس[٧] صاحب أول مذهب عقلي في الفكر اليوناني أما في العصر الحديث يعتبر رينه ديكارت[٨] أبرز ممثل لهذا المذهب فقد شك في المعارف الحسية وما حصله من علوم بصورة تقليدية وهو ما عرف بالشك المنهجي أو الديكارتي وتوصل وفقا لهذا المنهج إلى حقيقة لا يمكن أن يتطرق إليها الشك إلا وهي وجوده كذات مفكرة وهو ما يعرف بالكغتو : **" أنا أفكر فأنا إذن موجود "** فهذا الإدراك يتم آنيا بحيث لا يكون هناك فاصل زمني بين إدراك الفكر وإدراك الوجود ويقوم هذا الإدراك على الحدس ويعرف ديكارت الحدس

(٧) فيلسوف يوناني ولد في إيليا عام ٤٥٠ ق. م قائل بأزلية الأشياء وعدم تغيرها

(٨) رينيه ديكارت Rane Descarte فيلسوف ورياضي فرنسي عاش بين عامي ١٥٩٦ – ١٦٥٠ اشتهر بكتابة المقالة في الطريق أو المنهج، له عدة اكتشافات هندسية وفيزيائية انظر المنجد في الأعلام ، ص ٢٢٧.

بأنه نور فطري غريزي يدرك العقل بواسطته الأفكار البسيطة مباشرة بدون مقدمات أما الاستنباط فيأتي في الدرجة الثانية بعده وهو وسيلة إدراك الطبائع المركبة وعن طريقه يمكن أن نستخلص نتائج معينة فتنتقل من المجهول إلى المعلوم بهذه العبارة **" أنا أفكر فأنا موجود "** حكم ديكارت بأن في مستطاعه أن يتقبل هذه الحقيقة تقبلا خاليا من الريبة فجعلها اللبنة الأولي لفلسفته فأصبح العقل أكثر يقينا من المادة وأن عقله هو أكثر يقينا من عقول الآخرين فالحقيقة هي ما يراه بعقله أولا وأما الأشياء المادية فلو عرفها فإنه يعرفها استدلالا مما عرفه بعقله أي عن طريق الاستنباط فالروح الذي يفكر لا يحتاج إلى مكان يستقر فيه وطريقة معرفته أيسر من معرفة الجسم فهي واضحة ومتميزة ، فالجلاء والوضوح هو معيار صدق الأحكام عنده فكل شيء ندركه بعقولنا إدراكا غاية في الوضوح وغاية في التمييز فهو صواب فالمعرفة إذن أساسها العقل الذي يدركه صاحبه إدراكا مباشرا ، فالمعرفة العقلية التي تدرك عن طريقها الشيء بماهيته أو بعلته القريبة مثل معرفتي أن النفس متحدة بالجسم لمعرفتي بماهية النفس وهذه معرفة كاملة لأن موضوعاتها معان واضحة متميزة يكونها العقل بذاته ويؤلف ابتداء منها مسلسلة مرتبة من الحقائق فالمعاني البسيطة كالنفس والله والامتداد والوجود والزمن والوحدة هي بداية كل علم والبساطة هي علامة الصدق واليقين بحيث لا يحتاج المعنى إلى علامة خارجية لإثبات صحته فالمعني البسيط له صفة الصدق في ذاته لا لمطابقته لموضوع خارجي ، فللطبائع البسيطة أو الأفكار البسيطة خصائص يدركها العقل ولا ترتسم لها صورة ذهنية على نحو ما ترتسم الصور الذهنية للمحسوسات وهكذا الأشياء الخارجية ندركها بالعقل لا بالحدس . يقسم ديكارت الأفكار إلى الآتي :

(١) أفكار فطرية كالبديهيات .

(٢) أفكار يخلقها الإنسان كالتوهم والتخيل.

(٣) أفكار تأتي للإنسان من الخارج ويعتقد الإنسان بالميل الطبيعي إلى أن هذه الأفكار صورة شبيهة بالأشياء الخارجية التي أحدثت فيه تلك الأفكار فبالرغم من أن هذه الأشياء مستقلة عن ذات الإنسان فالأفكار تتكون إذا أراد ذلك أو لم يرده الشيء الذي يؤكد الاعتقاد بأنها تصور أشياءها تصوير الشبيه بشبيهه لكن لا هذا الميل

الطبيعي ولا هذا الاستقلال حجة منطقية تدل بالضرورة على صدق الاعتقاد ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذي وهب الإنسان هذا الميل الطبيعي للاعتقاد بأن أفكاره عن الأشياء الخارجية صورة أمينة لها ولذلك فالعالم الخارجي موجود كما تدركه الحواس .

يذهب العقليون إلى أن المعرفة لابد أن يكون صدقها ضرورياً وشاملاً وهذا لا يتوفر إلا في العقل فمعرفته تتسم بالضرورة والكلية فهي قضايا بينة بذاتها وأولية بمعني أنها فطرية والأفكار الفطرية عند ديكارت تعني أنها استعدادات سابقة على الإدراك.

فالضرورة التي تتسم بها المعرفة العقلية توجب صدق هذه القضايا دائما كما هو الحال في قوانين المنطق والرياضيات والبديهيات فهذه الأحكام صادقة في كل زمان ومكان والعقل قوة فطرية يوجد عند كل الناس ولذا كانت هذه المبادئ واحدة عند جميع الناس فالمعرفة العقلية يقينية أما الحسية فهي ظنية ، ولذلك تعتبر الرياضيات مثلا أعلى لليقين عند العقليين.

رغم الحجج التي صاغها دعاة المذهب العقلي فقد برز مذهب جديد يذهب إلى أنه ليس العقل وحده ولا الحس وحده كما يدعي التجريبيون ، هو الذي يمدنا بالمعرفة بل اجتماعهما معا هو الذي يؤسس موضوعاتها إلا وهو المذهب النقدي .

ثالثا : النقديون :

تهدف الفلسفة النقدية إلى تحليل أفكارنا لاستخراج الأصول المنطقية الكامنة وراءها التي لولاها لما استطعنا أن نكون تلك الأفكار وتسمى هذه الأصول بالمقولات أو الصور أو القوالب وقد حاول ذلك كانط.[٩] في كتابه المشهور نقد العقل الخالص وبرهن فيه أن معرفة الإنسان يستحيل أن تتجاوز حدود خبرته الحسية إلا أن هذه الخبرة الحسية نفسها لابد لها من إطارات أو قوالب أو مقولات تكون فطرية في طبيعة العقل لتتشكل الخبرة

(٩) هو الفيلسوف الألماني أمانويل كنط، ولد عام ١٧٢٤م يعتبر أبا الفلسفة النقدية ، أهم كتبه نقد العقل النظري ونقد العقل العملي ، توفي عام ١٨٠٤م ، انظر المنجد في الأعلام ، ص ٤٢٩.

الحسية على غرارها ، فالمعرفة لا تتم إلا بالخبرة الحسية والمبادئ العقلية معا. وعمل كانط على البحث عن المقولات التي ترتد إليها أحكام الناس البادية في كلامهم مهما اختلفت هذه الأحكام في مضمونها فالفرق بين المقولة وما يملؤها من معرفة هو أن الأولى عقلية تكون في طبيعة الإنسان قبل الخبرة أما الثانية فتأتي بعد الخبرة أي أن القالب فطري والحشو مكتسب فعمل الفيلسوف هو فصل القالب الصوري عن المضمون التجريبي الذي يملؤه .

قسم كانط القضايا إلى نوعين هما :

(أ) **قضايا تكرارية :** وهي التي لا تحتاج لخبرة تؤيدها لأنها تكرر القول ولا تفيد جديدا وصدقها يتوقف على اتساق أجزائها كقولنا ٢+٢=٤ وتسمى بالقضايا القبلية.

(ب) **قضايا إخبارية تحتاج إلى الخبرة :** لتؤيدها فصدقها يتوقف على مطابقة الخبر للواقعة التي جاءت الجملة لتخبر عنها، فالقضية الخبرية أو التجريبية لا دليل عليها إلا بعد إدراك حسي تقوم به فهي إذن قضايا بعدية. فمعارفنا جميعا هي قبلية وبعدية في آن واحد وهو أن جانبا يأتي من الخارج وهو جانب الخبرة الحسية تأتينا منبعثة من الأشياء ويتلقاها العقل وينظمها في حدوده ومن ثم يكون كل جزء من معارفنا معتمدا في مضمونه على خبرة الحواس وفي قالبه على فطرة العقل في طريقته للأداء وهكذا يكون كل جزء من معرفتنا حسيا وعقليا بعديا وقبليا في آن واحد ويعلل ذلك كانط قائلا إن في فطرة الإنسان وسيلتين لجمع الإحساسات المتفرقة هما المكان والزمان إذ بهما يتم جمع الإحساسات حتى تصبح صورا ذهنية متصلة مترابطة للأشياء التي انبعثت منهما تلك الإحساسات فالحواس نوافذ تنفذ منها ألوف الإحساسات في كل لحظة فنتناولها نحن في الداخل بالترتيب المكاني وبالتتابع الزماني حتى تصبح مدركات منظمة ، والزمان والمكان يستخدمهما الإنسان بواسطة الحواس فهما يبطلان إذا ما استخدما في غير الظواهر المحسوسة فالحقائق الخارجية إن كانت من غير المحسوسات استحال أن يكون لها مكان أو زمان. وبهذا يكون كانط قد وقف بمذهبه بين الواقعية والمثالية لأنه من ناحية اعترف بالإحساسات

التي تأتي إلينا من الخارج كمادة أولية للمعرفة ولكنه من ناحية أخرى قرر فاعلية العقل واشتراكه في صياغة تلك الإحساسات في مدركات حسية .

كما ذهب كانط إلى أن للعقل مدركات عقلية موجودة فيه قبل أية خبرة حسية يستعين بها الإنسان في تكوين المعاني الكلية من المدركات الحسية كمقولة الجوهر الذي لابد منه لتتعلق به الظاهرات العرضية ليتكون الشيء في تصورنا فجوهر الإنسان أي نفسه أو روحه فرض لابد منه لتتكون للفرد وحدته واستمراره والجوهر نفسه ليس من بين المحسوسات لكنه شرط لازم لاجتماعها وتماسكها وإلا لكان تصورنا لصفات الإنسان وهي معلقة وحدها بغير محور تتعلق به كتصورنا لمجموعة ثياب معلقة في الهواء بغير مشبك ، وحينما يقوم الإنسان بالإدراك الحسي لشيء ما لا يتكون له معنى كلي أو مدرك عقلي في الحال بل لا بد له من مقارنة بين أفراد ذلك الشيء الذي يمر به في خبرته لتجريدها من صفاتها الثانوية ولتبقي له صفاتها الأولية التي يجب أن تكون في الشيء لكي يكون شيئا وهذه الصفات الجوهرية إذا ما تكونت كان عند الإنسان بذلك معنى كلي عن الشيء بصفة عامة.

وهناك أيضا نوع من المدركات العقلية زودت به فطرة الإنسان لا يحتاج إلى خبرة حسية لتكوينه كالسببية فهي مفطورة في عقل الإنسان قبل أن تحصل بحواسه أي خبرة حسية فحينما نقول (أ) سبب في حدوث (ب) نجد أن الخبرة الحسية ليس فيها إلا (أ) تتبعها (ب) وليس في مجرد التتابع المحسوس معنى الضرورة أي ليس فيه ضرورة أن تكون (أ) دائما متبوعة ب(ب) إنما الذي فرض هذه الضرورة هو المدرك العقلي الذي زودت به فطرة الإنسان. هذه المقولات شأنها شأن وسيلتي الإدراك الحسي المكاني والزماني ذاتية نخلعها على مدركاتنا فتكون لنا العالم الموضوعي فهي جزء من بنية عقولنا وهي بمثابة القوالب الفارغة أعدت لتصب فيها خبراتنا الحسية فلا يجوز تطبيقها إلا على ما يأتي عن طريق الحواس .

مصادر المعرفة عند المسلمين ابن حزم نموذجاً :

نجد في التصور الإسلامي أن الله سبحانه وتعالى هو مصدر المعرفة فهو يقول ﴿ **إنما العلم عند الله** ﴾ ويقول أيضا ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا** ﴾ [الأحقاف : ٢٣] [الملك : ٢٦] فمعرفة الإنسان مستمدة من الله سبحانه وتعالى ﴿ **اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (١) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٢) عَلَّمَ الْإِنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ [العلق : ٤]. وجعل الله لهذه المعرفة ميادين هي :

أولا : ميدان الغيب **" الله – الملائكة – الجن الخ ".**

ثانيا : ميدان الشهادة وهو كل ما يدرك بالحواس الخمس وهو العالم وما يحويه وينقسم بدوره إلى ميدانين هما :

(أ) ميدان الآفاق **" العلوم الكونية ".**

(ب) ميدان الأنفس **" العلوم النفسية والاجتماعية "** وإليهما يشير الله سبحانه وتعالى بقوله ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾ [العلق : ٥]. ووسائل المعرفة لهذه الميادين هي الوحي وهو وسيلة المعرفة في الميدان الأول أما العقل والحواس فهما وسيلة المعرفة في الميدان الثاني بشقيه ، يقول ابن حزم : **" ويكون ذلك – أي العلم – إما بشهادة الحواس, وأول العقل وإما باتفاق وقع له في مصادقة اعتقاده الحق بتصديق ما افترض الله عز وجل ".**[١٠] في هذا النص يوضح ابن حزم أن المعرفة في ميدان الشهادة لا تقوم على الحواس وحدها كما يقول التجريبيون ولا على العقل وحده كما يذهب إلى ذلك العقليون بل يقرر أن المعرفة تقوم على الخبرة الحسية والمبادئ العقلية معا سابقا بذلك الفيلسوف الألماني كانط إمام النقديين الذي حاول التوفيق بين المذهب التجريبي الحسي والمذهب المثالي العقلي ، فأوضح أن المعرفة لا تتأتي إلا باجتماع عنصرين هما مادتها

(١٠) الفصل الجزء (الخامس) ابن حزم ، ص ١٨٥.

الآتية من الأشياء عن طريق الحواس وصورتها الآتية من العقل فالمعرفة ليست ذاتية خالصة أو موضوعية محضة بل هي تجمع بين الناحيتين .

إن المباديء الأولية أو الفطرية عند ابن حزم تشبه المقولات عند كانط وهي معانٍ كلية توجد في العقل قبل أي خبرة حسية فابن حزم عندما يقول مثلا : **" إن الشيء يستحيل أن يكون موجودا معدوما في وقت واحد "**.(١١) هذا النوع من المعاني خال من الصفات الحسية وهو فكر خالص وهو المبدأ الأول الذي يفسر كل معرفة ولا تكون معرفة بغيره فهذه المقولات قوالب قبلية لابد من وجودها لتصب فيها معارفنا ولكن كيف ومتى وقع العلم بهذه المباديء الفطرية؟ يذهب ابن حزم إلى أن العلم بالبديهيات لا أحد يدري كيف وقع؟ وإنما هي ضرورة أوقعها الله في النفس يقول : **" وليس يدري أحد كيف وقع العلم بهذه الأشياء – البديهيات "**.(١٢) ويؤكد ذات المعنى مرة أخرى بقوله : **" وهكذا لا يدري أحد كيف وقعت له صحة معرفته بذلك ولا كان بين أول أوقات فهمه وتمييزه وعود نفسه إلى ابتداء ذكرها وبين معرفته بصحة ما ذكرنا زمان أصلا لا طويل ولا قصير إنما هو فعل الله عز وجل في النفس وهي مضطرة إلى فعل ذلك ضرورة "**.(١٢) أما متى كان ذلك الإدراك فيقول ابن حزم **" وليس بين أول أوقات تمييز النفس في هذا العالم وبين إدراكها لكل ما ذكرنا مهملة البتة لا دقيقة ولا جليلة ولا سبيل إلى ذلك فصح أنها ضرورات أوقعها الله في النفس . ولا سبيل إلى الاستدلال إلا من هذه المقدمات "**.(١٤) نلمس في هذه النصوص الآنية أي المصاحبة في الحدوث بين إدراك النفس للبديهيات وإدراك الوجود بحيث لا يكون هناك فاصل زمني بين الحدثين . فالنفس الإنسانية تنطوي بالقوة على تلك المعارف الأولية وبالحركة الجوهرية والتطور تزداد كمالا ووعيا بالمعلومات الأولية فيفتح ذلك ما كمن فيها من طاقات وقوى حتى تصبح تلك

(١١) المرجع السابق ، ص ١١٣.
(١٢) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٥٣.
(١٢) المرجع السابق ، ص ١٤.
(١٤) المرجع السابق ، ص ١٧.

المدركات التي بالقوة مدركات بالفعل . ويقصد ابن حزم بالضرورة هنا أن النفس تضطر إلى الإذعان بها من غير أن تطالب بدليل يبرهن على صحتها بل تجد من طبيعتها الإيمان بها إيمانا غنيا عن كل بيئة وإثبات فحجر الزاوية في المعرفة هو المعلومات العقلية الأولية وعلى ذلك الأساس تقوم البنيات الفوقية للفكر الإنساني التي تسمى بالمعلومات الثانوية فلو سلبت تلك المعارف الأولية من الذهن البشري لم يستطع التوصل إلى معرفة نظرية مطلقا والتجربة البشرية لا تشق الطريق إلى نتائج وحقائق إلا على ضوء معلومات عقلية سابقة ثم يستنبط منها العقل معارف أخرى فإن كل معرفة إنما تتولد عن معرفة سابقة وهكذا تلك المعرفة حتى ينتهي التسلسل الصاعد إلى المعارف العقلية الأولية التي لم تنشأ عن معارف سابقة وتعتبر لهذا السبب العلة الأولي للمعرفة ويجب أن تقاس صحة كل فكرة وخطؤها على ضوئها ، وقد أعطى ابن حزم أهمية كبيرة للحواس بوصفها مصدراً من مصادر المعرفة شأنها شأن العقل ولكن لا بد أن تكون سليمة لتكون معارفها يقينية يقول ابن حزم : **" والقسم الثاني –أي من المعارف – هو ما عرفه الإنسان بحسه المؤدي إلى التيقن بتوسط العقل كمعرفة أن الصبر مر والتمر حلو ..وما أشبه ذلك .. وهذا لا يدري كيف وقعت له صحة معرفته بذلك "**.[١٥] يعني هذا أن المعرفة الحسية المتيقنة بالعقل أيضا من الضرورات التي أوقعها الله في النفس وجعل معرفتها يقينية ولا يدري أحد كيف ومتى حدث ذلك.

فصل ابن حزم القول في وسائل المعرفة فقصر عمل العقل والحواس وما يرجع إليها من براهين على ميداني الشهادة فقال : **" وفي هذا القسم أيضا- أي البرهان- يدخل الكلام في الطبيعيات وفي قوانين الطب ووجوه المعاناة والقوى والمزاج وأكثر مراتب العدد والهندسة "**.[١٦] يفيد هذا أن المعرفة في العلوم الكونية والاجتماعية تقوم على العقل والحواس وتبني على الملاحظة والتجربة، أما المعرفة في ميدان الغيب فمصدرها هو الوحي

---

(١٥) ابن حزم- الفصل الجزء (الأول) ص (١٢).

(١٦) ابن حزم – التقريب لحد المنطق – ص (١٥٨).

الذي تميز به ابن حزم على سائر المدارس المادية التي أشرنا إليها التي قصرت وسائل معرفتها في الحواس فقط أو في العقل وحده ، أو جعلتها فيهما معا كما هو الحال عند النقديين. والصلة وثيقة عنده بين ميداني الغيب والشهادة فالعلاقة بينهما علاقة تكاملية فأدلة عالم الغيب موجودة في عالم الشهادة يقول الله : ﴿ **بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [الأعراف : ١٧٩]. وذلك لأن الله سبحانه وتعالى رزقنا البصر والسمع والفؤاد وجعلها وسائل لإدراك الغيب ، فالقلب يقوم بعقل أي تثبيت أو إمساك ما يقع على الحواس ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأرض فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا** ﴾[الحجرات : ٤٦]. ويقول الله أيضا ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا** ﴾[الأعراف : ١٧٩]. وبعد أن يعقل القلب المدركات يأخذ في التفقه فيها ويقوده ذلك للإيمان يعني ذلك أن العلم يدرك بالحواس والإيمان يدرك بالقلب. فالله رزقنا إدراكا للشاهد أوصلنا لإدراك الغائب والتأمل في ميداني الشهادة هو المدخل لميدان الغيب أي الإيمان والقرآن يسمى إعمال العقل والحس وتدبرهما في عالم الآفاق نظراً فيقول ﴿ **أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالأرض مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** ﴾ [ق : ٦-٧]. أما النظر في ميدان الأنفس فيقول فيه ﴿ **فَلْيَنظُرِ الْإِنسان مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ** ﴾ [الطارق : ٥-٧]. يعني هذا أنه انطلاقا من مقدرة الإنسان على تمييز الأشياء المدركة بالحواس والعقل ومعرفة صفاتها التي هي عليها جارية يستطيع إثبات أن هذا العالم حادث وأنه لابد له من محدث أو خالق واحد لم يزل وإثبات صحة نبوة من قامت الدلائل على نبوته يقول ابن حزم : **" وبهذه السبيل التي ذكرنا- العقل والحواس- عرفنا أن لنا خالقا واحدا أولا حقا لم يزل وأن ما عداه محدث كثير مخلوق لم يكن ثم كان وبها عرفنا صدق المرسلين الداعين إلى الله تعالى وصحة بعث محمد ﷺ ".**[١٧] هذا

[١٧] ابن حزم-التقريب لحد المنطق – ص (١٥٧).

يعني أن أساس العقيدة وهو إثبات وجود الله سبحانه وتعالى ووحدانيته يستند على استخدام العقل والحواس وما يقوم عليهما من البرهان وحينما يقوم الدليل على ذلك يجب الالتزام بأوامر الله ، يقول ابن حزم : **" وإذا صح التوحيد وصحت النبوة صح وجوب الانتماء لها وصحت الأوامر والنواهي عن النبي ﷺ ووجب اعتقاد صحتها والانتماء لها ".**[١٨] يفيد هذا النص أنه متى ما صح التوحيد وصحت النبوة وجب التسليم والانقياد للوحي. ووجب إلا يتدخل العقل باحثا عن علل وأسباب أوامر الوحي ونواهيه. ولابد لنا أن نميز بين ما يطاله العقل وما لا مجال للعقل فيه. فالإنسان لا يستطيع بعقله أن يعرف أسباب التحليل أو التحريم ودواعي التشريع يقول ابن حزم : **" فأما أن يكون العقل يوجب أن يكون الخنزير حراما أو حلالا أو أن تكون صلاة الظهر أربعا وصلاة المغرب ثلاثا فهذا لا مجال للعقل فيه. أو يقتل من زنا وهو محصن وإن عفا عنه زوج المرأة وأبوها ولا يقتل قاتل النفس المحرمة عمدا إذا عفا عنه أولياء المقتول .. فهذا ما لا مجال للعقل فيه لا في إيجابه ولا المنع منه ".**[١٩] يفهم من هذا أن التشريع والعبادات ليس هما ميدانا للعقل ليرتاده فوسيلة المعرفة فيهما هي الوحي فإن تدخل العقل في هذا الميدان هو توظيف لوسيلة في غير مكانها السليم والنتيجة المترتبة على ذلك هي الضلال المبين ، وقد حدد ابن حزم ميدانا للعقل ليعمل فيه وهو الطبيعة يقول ابن حزم : **" وقد بينا أن حقيقة العقل إنما هي تمييز الاشياء المدركة بالحواس وبالعقل ومعرفة صفاتها التي هي عليها جارية على ماهي عليه فقط من إيجاب حدوث العالم وأن الخالق واحد لم يزل وصحة نبوة من قامت الدلائل على نبوته . والعمل بما صححه العقل من ذلك كله وسائر ما هو في العالم موجود ما عدا الشرائع وأن يوقف على كيفيات كل ذلك**

---

(١٨) المرجع المرجع – ص (١٥٨)

(١٩) ابن حزم – الإحكام في أصول الأحكام – تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر- دار الأوقاف الجديدة – بيروت – الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م – ج ١ ، ص ٢٨/ ٢٩ سوف نعتمد على هذه الطبعة في هذا البحث ونشير إلى هذا الكتاب بالإحكام للاختصار .

فقط ".[٢٠] يتضح بهذا أن موضوع المعرفة بالنسبة للعقل هو كل ما في العالم ما عدا الشرائع فدوره فيها قاصر على فهمها فقط يقول ابن حزم : **" وإنما في العقل الفهم عن الله تعالي لأوامره ووجوب ترك التعدي إلى ما يخاف العذاب على تعديه "**.[٢١] يعني هذا أن دور العقل في الشريعة عند ابن حزم يتمثل في تدبر النصوص وفهمها فما فيه نص ظاهر فهو كظواهر الطبيعة يؤخذ به كمعطي من معطيات الشرع التي يمكن أن يستنبط منها بعض الأحكام ويكون ذلك باستقراء النصوص الشرعية واستخلاص مقدمات منها يركب قياس برهاني هو الدليل عند ابن حزم ويعتبر الدليل المصدر الرابع للتشريع بعد القرآن والسنة والإجماع عند ابن حزم وإذا تكاملت أدوات المعرفة الثلاث الوحي والعقل والحواس أثمرت معرفة يقينية فالوحي بالنسبة للعقل كالضوء للعين فكما أنها لا ترى الأشياء في الظلام فالعقل أيضا يمكن أن يضل ولا يبصر الحقائق إن لم يحدد له الوحي إطاراته ويحفظه بذلك من أن يصرف طاقته فيما لا طائل تحته ويرشده إلى أن الهدف من المعرفة هو عبادة الله لا التجبر والعلو في الأرض بغير الحق ولذلك سميت آيات الوحي في القرآن بصائر فقال الله تعالى : ﴿ **قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ** ﴾ [الأنعام : ١٠٤] وقال أيضا ﴿ **بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ [الجاثية : ٤٥]. يعني ذلك ان ابن حزم بنى نظريته في المعرفة على هذه الوسائل الثلاث **" الوحي والعقل والحواس "**.

---

(٢٠) المرجع السابق ، ص (٢٨).

(٢١) المرجع السابق ، ص (٢٩).

المبحث الثاني

منهج التفكير الكنسي

عاش أتباع الديانة النصرانية ظروفا صعبة من الاضطهاد والقتل والتعذيب لمدة ثلاثة قرون تقريبا ، من الرومان الوثنيين واليهود معاً ، الشيء الذي جعلها تفقد كتابها المقدّس الإنجيل، مما فتح المجال لتحريفها، وذلك بدخول الكثير من الوثنيات والتصورات الفلسفية فيها خاصة على يد بولس الرسول ، الذي اتسمت شخصيته بالنفاق . فقد كان يهوديا مع اليهود ووثنيا مع الرومان وموحدا مع الموحدين فهو يقول : **" أنا رجل حر عند الناس ، وجعلت من نفسي عبدا لجميع الناس حتى أربحهم؛ فصرت لليهود يهوديا، وصرت لأهل الشريعة من أهل الشريعة، وصرت للذي بلا شريعة كالذي بلا شريعة ".**[٢٢] ويؤكد هذا المعني المؤرخ الأمريكي دريبر.[٢٣] بقوله : **" ودخلت الوثنية في النصرانية ولم تتمكن من أن تقطع دابر الوثنية وتقتلع جرثومتها. وكان نتيجة كفاحها أن اختلطت مبادؤها بالوثنية ، ونشأ من ذلك دين جديد تتجلّى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء ".**[٢٤] ويذهب في ذات الاتجاه المفكر الإنجليزي ولز.[٢٥] قائلا : **" وظهر للوقت معلّم آخر عظيم يعده كثيرٌ من الثقات العصريين المؤسّس الحقيقي للمسيحية وهو شاول الطرسوسي أو بولس. والراجح أنه يهودي المولد. ولا مراء في أنه تعلّم على أساتذة يهود، كما أنه كان متبحّرا في لاهوتيات الإسكندرية الهيلينية، وهو متأثر بطرائق التعبير الفلسفي ".**[٢٦] تؤكد هذه النصوص

---

(٢٢) رسالة كورثنوس ٩ / ١٩٢٤م.

(٢٣) جون وليام دريبر أستاذ بجامعة نيويورك ، متخصص في تاريخ الكنيسة.

(٢٤) ج. و. دريبر، الدين والعلم ترجمة عبدالكريم ناصف ، دار الفرقد ،٢٠١٩م ، ص ١٢١.

(٢٥) هـ. ح ولز مؤرخ انجليزي مهتم بتاريخ الكتب المقدسة

(٢٦) هـ. ج ولز ، معالم تاريخ الإنسانية ، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد ، الهيئة العربية، ١٩٩٤م.

تحريف الأناجيل، ودور بطرس في إضافة الكثير من الآثار الوثنية والفلسفية والغنوصية لعقائدها ، ومن ذلك مثلا الآتي :

أولا : الثالوث المقدّس :

إن الثالوث المقدس قضية جوهرية في الفكر النصراني، فالله سبحانه وتعالى في هذا التصور مركب من ثلاثة أقانيم ، هي الأب والابن وروح القدس، وإنّ هذه الأشخاص الثلاثة لم تزل جميعا معا لم يسبق بعضها بعضا في الوجود. وإنهم جميعا في اللاهوت، وليس بين الشخصيات الثلاث إلا واحد في الطبيعة، وأنّ هذا الواحد في الطبيعة ثلاثة في الاشخاص المتفرقة. فالأب ليس بالابن والابن ليس بروح القدس. ويبدو أنهم عزوا هذا الثالوث لما جاء في الإنجيل من قول المسيح **" عمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس "**.[٢٧] والراجح أن هذه العقيدة قد دخلت النصرانية من الوثنيات التي كانت منتشرة في شرق البحر الأبيض المتوسط .

ثانيا : البنوة والتَّجسيم :

يعتقد النصاري أنّ المسيح ابن الله، وأنّه له طبيعة لاهوتية تضاف إلى طبيعته الناسوتية ، ليكون المسيح بذلك إلها وبشرا في نفس الوقت، لأنه هو روح الله وكلمته التي تجسدت في **" الناسوت "**. مريم بنت عمران عليها السلام يقول يوحنا **" كما يحيي الأب الموتى ويقيمهم كذلك يحيي الابن من وافقه وما يحكم الأب على أحد لأنه يرد الحكم إلى نسله "**.[٢٨] هذا النص بالإضافة لجعله لعيسى عليه السلام ابن الله ،فإنه يجعل الله كالملك الذي يعهد بالحكم لابنه. أما التّجسيم والتّجسيد والحُلول فنجده فيما قاله بولس في حواره مع المسيح : **" يا سيدنا أرنا الأب ويكفي. فقال له المسيح طول هذا الزمن كنت معكم ولم تعرفوني يابولس؟ من رآني فقد رأي الأب فكيف تقول أنت : أرنا الأب ، أليس تؤمن أنيّ أنا في الأب وأنّ الأب هو في والكلام الذي أكلمكم به؟ لست أتكلم**

---

(٢٧) إنجيل متى ١ / ١٠.

(٢٨) إنجيل يوحنا الباب الخامس ٢٠٧.

به من نفسي لكن الأب الحال في هو يعمل الأعمال ".[٢٩] هذا النص يشير إلى تأثرُّ العقيدة النصرانية بفلسفة الحُلول والإتِّحاد ومخالفتها لحقيقة الرسل في دين الله فهم بشر. يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إلا بَشَراً رَّسُولاً** ﴾[الإسراء : ٩٣]. ويقول جلّ وعلا : ﴿ **مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ** ﴾ [الفرقان : ٧]. فلا قداسة للرسل ، وعلاقتهم بالله هي علاقة العبودية كسائر المخلوقات ، وأنّ مهمتهم هي الدعوة لتوحيد الله وإفراده بالألوهية والربوبية وجعلهما من خصائصه التي لا يشاركه فيهما أحد.

ثالثا : فصل العقيدة عن الشريعة :

أخذت النصرانية تخرج للعلن وتنتشر في الإمبراطورية الرومانية، بعد أن اعتنقها الإمبراطور قسطنطين الذي عزل فيها العقيدة عن الشريعة ، وذلك بابقائه على القانون الروماني حاكما على كل أوجه الحياة بدلا عن الشريعة الموسوية التي جاءت في العهد القديم ، في تدخل سياسي سافر في دين الله ودق بذلك أول مسمار في تحريفها . وجعل بذلك النصرانية عقيدة فقط . وقد قبلت الكنيسة بذلك وباركته تاركة له حكم الإمبراطورية بواسطة القانون الروماني الوثني وذلك استنادا على قول نُسب للمسيح : **" اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله "**.[٣٠] وزعمت الكنيسة أن هذه الآية معناها أنَّ من حق قيصر أن يحكم عالم الأرض على أن يحكم الله عالم السماء. أو أنّ الأبدان لقيصر يفعل فيها ما يشاء ، أما الأرواح فهي لله الذي انحصر سلطانه عليها في الشعائر التعبدية . وقد مهّد هذا الفصل بين العقيدة والشريعة للنظام العلماني فيما بعد . كما أنه قد أدّى إلي مسخ الديانة النصرانية مسخا كاملا ، لأن كل رسالات الرسل هي عقيدة وشريعة. يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** ﴾ [الحديد : ٥]. وبهذا يتّضح أنّ الإمبراطور قسطنطين بعد

---

(٢٩) إنجيل متى الباب الحادي عشر ١٤ / ١٠.

(٣٠) إنجيل متى ١٤ / ٢٣.

اعتناقه للنصرانية اخضعها لوثنيته ، بدلا أن يخضع لها ، وكان بهذا دوره كبيرا في تحريفها. ثم جاءت بعد ذلك المجامع الكنسية الخاصة والعامة وأضافت العديد من التصورات والعقائد للنصرانية . يقول ابن تيمية رحمه الله : **" فالنصاري تضع لهم عقائدهم وشرائعهم أكابرهم بعد المسيح كما وضع لهم الثلاثمائة والثمانية عشر الذين كانوا في زمن قسطنطين الأمانة التي اتفقوا عليها ، ولعنوا من خالفها . وفيها أمور لم ينزل بها كتاب مع مخالفتها للعقل الصريح "**.[٣١] هذا النص يؤكد دور قسطنطين والمجامع في وضع العقائد والشرائع المسيحية التي أخذت طابع القداسة بعامل الزمن باعتبارها سرا من أسرار الكنيسة وإن لم تك حقا من عند الله منها على سبيل المثال الآتي :

أولا : الرهبانية وتعني الزهد في مباهج الحياة من طعام وشراب وزواج. وحرّموا بذلك ما أحل الله ﴿ **وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إلا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا** ﴾[الحديد : ٢٧]. وعملوا بذلك على كبت هذه الغرائز الفطرية في النفس الإنسانية واسكاتها واماتتها ، وتحميل الأنفس بذلك فوق طاقتها، وتغيير فطرة الإنسان. مما دفع بعض الناس للتمرد على هذا الدين. كما أدّى ذلك أيضا إلى تسرّب المفاسد الأخلاقية للقساوسة وآباء الكنيسة ورجال الدين، فأصبحت المراكز الدينية والأديرة مباءة للقاذورات يخالف ظاهرها باطنها.

ثانيا : الصلب والفداء : يعتقد النصارى بصلب المسيح عليه السلام وذلك لفداء البشرية من الخطيئة التي ارتكبها آدم عليه السلام بأكله من الشجرة . يقول يوحنا : **" لم يرسل الله ابنه للعالم لكي يدين به العالم بل ليخلص به العالم "**.[٣٢] والله يقول : ﴿ **وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ** ﴾ [النساء : ١٥٧]. ويقول : ﴿ **إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ** ﴾ [آل عمران : ٥٥]. فالمسيح لم يُصلب كما يزعم النصارى ، وإنما رُفع إلى السماء، أما الخطيئة المزعومة فالله يقول فيها : ﴿ **فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ**

---

(٣١) ابن تيمية الجواب الصحيح دار الأزهر ١٩٥٤م ج١ ص ٣٤١.

(٣٢) يوحنا الإصحاح الثالث ١١٠.

كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : ٣٧]. وهذا يعني قبول الله لتوبة آدم وغفرانه لخطيئته. وعليه فلا مجال للقول بالفداء والتضحية من أجل البشرية بعد ذلك .

ثالثا : العشاء الرباني : يُقصد به أن يأكل النصارى في عيد الفصح خبزا ويشربون خمرا. وزعمت الكنيسة أنّ الخبز يتحول إلى جسد المسيح ، والخمر إلى دمه المسفوح، فمن أكلهما أدخل المسيح في جسده بلحمه ودمه . وقد فرضت الكنيسة على الناس قبول ذلك والتسليم به كحقيقة مقدسة لا يجوز مناقشتها والتداول فيها، وإلا عُدَّ من يقول بغير ذلك كافرا.

رابعا : الكهانة : دخلت الكهانة أيضا إلى النصرانية من الديانات الوثنية الشرقية ، فمنصب الكاهن يرفع رجل الدين لمنزلة أن يكون وسيطا بين الله وخلقه، فيغفر الخطايا ويتجاوز عن الذنوب. وقد تعلّقت بهذا المنصب ظواهر تحريفية طاغية في الكنيسة، منها الاعتراف وطلب الغفران أمام الكاهن، وذلك استنادا على ما جاء في إنجيل يوحنا : **" المسيح قال لتلاميذه : من غفرتم خطاياه نغفر له ومن أمسكتم خطاياه أمسكت "**.(٣٣)

ولهذا أصبح الكاهن يمارس على الناس سلطانا روحيا هائلا تحيط به هالة من الغموض، على أساس أن له صلة خفية بالإله المعبود تتيح له ذلك السلطان المرهوب على القلوب. لاعتقادهم بأنه يملك أن يستنزل غضب الرب ورضاءه فيتصور لهم أن غضب الكاهن هو غضب الرب وأنَّ رضاءه ، هو رضاء الرب. وظلّ الناس خاضعين لهذه الأوهام مذعنين للكهنة الذين يزعمون بأنَّ في أيديهم وصل القلوب بالله بطريقة خفية لا تدركها الأبصار ولا الأفهام، علاوةً على امتلاكهم للمفاتيح والأسرار اللاهوتية. وقد أقامت الكنيسة هذا السلطان الكهنوتي على قول متى **" قال المسيح لكبير الحواريين بطرس : " أنت بطرس " على هذه الصخرة ابنِ كنيستي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها. وأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات فكل ما تربطه في الأرض يكون مربوطا في**

(٣٣) انجيل يوحنا ٣/ ١٩٠.

السماوات وكلما تحلّه في الأرض يكون محلولاً في السماوات ". ثم قال : **" إنِّي أهب سلطاني لكنيستي "**.[٣٤] يعني هذا النص أنّ الكنيسة قد ورثت المسيح . ولمّا كان المسيح ، وسيطا بين الله والناس، فالكنيسة كذلك ولذا فكل ما يصدر منها واجب الطاعة، لأنه من أمر الله. وأصبحت بهذا روما عاصمة النفوذ الديني المسيحي في العالم ، ومقرا للفاتيكان، الذي يجلس على عرشه البابا الذي هو ظل الله في الأرض، والناطق باسمه فيها. وأنَّ هناك من أسرار العقيدة ما لا يعلم تأويله إلا هو والطبقة العليا من الكهان، كأسرار التثليث والعشاء الرباني .. الخّ ويتنزل سلطان هذا البابا على المؤسسات الكنسية من أعلاها حتى الأبرشيات في قاعة الهرم الكنسي. وللقساوسة في الكنائس ذات القداسة التي للبابا، وذلك باعتبارهم وسطاء بين الناس وبين الرّب. ففي هذا النظام الكنسي لا يكون الطفل نصرانيا حتى يُعَمّد في الكنيسة على يد الكاهن، ولا يتزوج إلا على يده، ولا يُقْبَر حينما يموت إلا بعد أن يصلّي عليه الكاهن في الكنيسة. وهكذا يظلّ هذا النصراني مُقّيداً بالكنيسة طوال حياته، التي يمثل القسيس فيها الوسيط لولوجه لعالم الغيب والاتصال بالله تعالى. فهو لا يستطيع أن يتواصل معه مباشرة بعيدا عن وساطة هذا القسِّيس، علما بأن الأديان السماوية ليس بها كُهّان، لأن الكهانة ليس لها وجود إلا في الأديان الموضوعة. ولمّا كانت النصرانية قد تعرضت للتحريف والتبديل كما رأينا، فقد أصبحت دينا وضعيا وإن تمسّحت بالمسيح عليه السلام. ومن هنا كان لها رجال دين وكُهَّان وكهانة وطغيان روحي. لأنه من طبيعة الأديان الموضوعة التي تركز على الجانب الروحي فقط. وبهذا يتَّضح أنَّ ما اضافته هذه المجامع الكنسية علاوة على تلك التصورات الوثنية والفلسفية والسياسية التي أضافها كل من الحواري بطرس والإمبراطور قسطنطين، قد جعلت النصرانية هي دين الكنيسة أكثر من كونها دين الله المنزل على عيسى عليه السلام.

---

(٣٤) إنجيل متى الإصحاح ١٦ – ١٩/ ٢٠.

طغيان الكنيسة :

أقامت الكنيسة سلطانها الذي عُرف **" بالبابوية "** باسم المسيح، وقد تحوّل بمرور الوقت خاصة في العصور الوسطى إلى سلطان دنيوي قاهر، بما يمارسه الكُهَّان والقساوسة باسم الكنيسة من الطغيان الروحي الذي دفعهم لبيع صكوك الغفران للناس . وتسخيرهم للعمل فيما تملكه الكنيسة من إقطاعيات زراعية علاوة ،على أخذهم عُشْر ما ينتجونه في مزارعهم. الشيء الذي جعل الكنيسة قوة اقتصادية ودعامة من دعامات القطاع. وبذا أدّى هذا الطغيان الروحي للطغيان الاقتصادي والاجتماعي. اللذين قادا بدورهما الكنيسة للطغيان السياسي، فادّعت سلطة دنيوية زمنية نازعت عليها الأباطرة والملوك ، رغم ادعائها بأن المسيح قد أعطى القيصر شرعية الحكم والسلطان. ولكنها عندما تمكّنت فعليا من إخضاعهم، لم تُزِلْ الظلم السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي مارسه القانون الروماني والإقطاع على الناس. ولكنها عملت بدلا من ذلك على إذلال الملوك ليطأطئوا رؤوسهم لها ، وليقرّوا صراحة بأنّهم خاضعون لسلطانها وأوامرها. ولكن بمرور الوقت تمرّد بعضهم عليها وأعلنوا بانهم الحكّام في الأرض بمقتضى الحق الإلهي المقدّس الذي جاء به المسيح **" اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ".**[٣٥] وهي الحجّة التي استندت عليها نظرية التفويض الإلهي في العصور الوسطى، ورفض بهذا هؤلاء الحكام أي سلطة للبابا عليهم غير السلطان الروحي، وخرجوا بذلك من تحت عباءته. وكانت نتيجة هذا الخروج أن تعمّق مفهوم الفصل بين الدين والسياسة الذي كان قائما من قبل، ليصبح عداءً كاملا بينهما حتى يومنا هذا .

الطغيان الفكري :

لم يك طغيان الكنيسة روحيا واقتصاديا واجتماعيا وسياسيا فحسب، وإنما فرضت الكنيسة على الناس أيضا طغيانا فكريا وعقليا، حينما قدمت لهم عقيدة مقدّسة ذات أسرار وألغاز منافية للعقل والمنطق. تقوم على أسطورة التثليث وأسطورة العشاء الرباني

(٣٥) إنجيل متى ١٤ / ٢٣.

وأسطورة الأب الذي صَلَبَ ولده فداء لخطيئة آدم. وطلبت أن يُسلم المسيحي بهذه العقائد تسليما بغير نقاش. يقول ولز : **" ونظرا لأنّ كثيرا من القساوسة كانوا يسرّون الريبة في سلامة بنيان مبادئهم، لم يسمحوا بأي مناقشة فيها. كانوا لا يحتملون أسئلة، ولا يتسامحون في مخالفة، لا لأنهم على ثقة من عقيدتهم، بل لأنهم كانوا غير واثقين فيها "**.[٣٦] يوضَّح هذا النص مدى الطغيان الفكري الذي مارسته الكنيسة، مما دفعها لتدعي بأنّ العقل لا ينبغي له أن يسأل أو يناقش أمر العقيدة. وإنما عليه أنْ يُسلم بها تسليما أعمى ويترك الأمر للوجدان. الشيء الذي يجعلها أشبه بالأديان الوثنية التي تحوي أوهاما لا يمكن أن يستسيغها العقل. لذا تعمل على إسكات صوته وتمنعه من التفكير بحجة اتقاء غضب الآلهة المزعومة . ولو كانت هذه العقيدة حقاً من دين منزل من الله ، لما منعت الكنيسة مناقشتها ، فالله قد دعا العقل دعوة صريحة إلى التفكّر والتدبر ليصل في أمر العقيدة إلى يقين. ولم يقل للناس آمنوا من غير أن تُفَكّروا وتعْقِلوا يقول الله تعالى : ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾ [محمد : ٢٤]. ويقول جل ثناؤه : ﴿ **قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَمَّا جَاءنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي** ﴾ [غافر : ٦٦]. ويقول تعالى أيضا : ﴿ **قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [النمل : ٦٤]. فالله سبحانه وتعالى يرتب الإيمان على التفكّر والتدبير ووجود البينات والبراهين والحجج. فهو لا يطلب التسليم الأعمى، بل التسليم البصير كما قال سبحانه : ﴿ **قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي** ﴾ [يوسف : ١٠٨]. ولكن الكنيسة هي التي حرِمت على العقلَ أن يفكر، وفرضت عليه التسليم الأعمى بهذه الأساطير. وجعلت بيدها وحدها مفاتيح فهمها أو تفسيرها ، ومن خالفها فهو من الكافرين، مما يؤكد تحريفها لدين الله . لأن دين الله المنزل من عنده يخاطب الإنسان كله وجدانه وعقله في آن واحد، فالوجدان لا يستغل بأمر العقيدة وحده ، وإن كان هو أوسع الأوعية البشرية التي تستوعبها. ومن ثم يشترك

---

[٣٦] ولز معالم تاريخ الإنسانية، مرجع سابق ،ج٣، ص ٩٠٢.

العقل والوجدان معا في أمر العقيدة ، كلٌ يؤدي دوره. وفي النهاية يستقر الإيمان في القلب ويصبح حقيقة في كيان الإنسان تتبدّي في سلوكه وشعوره وفكره على السواء.

الطغيان العلمي :

يتضح هذا الطغيان العلمي للكنيسة في فرضها على العقول إلا تفكر في أمور الكون المادّي بما تقتضيه الملاحظة والمشاهدة والتجارب العلمية. وأن تلتزم فقط بالتفسيرات الكنسية التي جاءت إشاراتها في التوراة، حتى لو خالفت هذه التفسيرات كل حقائق العلم النظرية والعملية.

يقول ولز : **" ولم يقتصر تعصُّب الكنيسة على الأمور الدينية وحدها، فإنّ الشيوخ الحصفاء المولعين بالأبهة ، السَّريعي الهياج ، الحقودين، كانوا يضيقون ذرعا بأيّة معرفة عدا معرفتهم. ولا يثقون بأي فكر لم يصحِّحوه ويراقبوه. فنصّبوا أنفسهم للحد من العلم الذي كانت غيرتهم منه بادية للعيان. وكان أي نشاط عقلي عدا نشاطهم يُعد في نظرهم نشاطا وقَحِا "**.[٣٧] يوضح هذا النص أنّ الموقف العدائي الذي اتخذته الكنيسة تجاه العلم ، لم يك قاصرا على النواحي الدينية التي أخذت تنادي بها حركات الإصلاح الديني على يد ولكلن في انجلترا وزونقلي في سويسرا ولوثر في المانيا، وكلفن في فرنسا، ومن هذه الحركات نشأت البروتستانتية، وإنّما تشمل أيضا العلوم الطبيعية التي هي بعيدة عن مجال تخصص الكنيسة.

وبدا هذا الطغيان العلمي واضحا حين وقفت الكنيسة ضد قول جردانو.[٣٨] برونو وكبرنكس.[٣٩] وجاليلو[٤٠] القائلين بكروية الأرض وأنّها ليست مركز الكون، بحجة أن التوراة قالت إنّها مسطّحة وإنّها مركز الكون وأنّ الإنسان هو مركز الوجود.

---

(٣٧) المرجع السابق ، ص ، ٢٤٧.

(٣٨) جردانوا برونو فيلسيوف إيطاليا ١٥٤٨ – ١٦٠٠ أحرق بالنار حياً.

(٣٩) كوبرنكس عالم فلك بولندي ١٤٧٣ - ١٥٤٣.

(٤٠) جاليلو عالم فلك إيطالي ١٥٦٤ - ١٦٤٢.

ولذلك قامت الكنيسة بإنشاء محاكم التفتيش البابوية. وظهرت لأول مرة قائمة الكتب التي حرّمت البابوية الاطلاع عليها ، واقتنائها ، ومعاقبة كل من يعثر عنده على كتاب منها بتقديمه للمحاكمة. مما أدى إلى محاكمة كل الخارجين على رؤي الكنيسة العقدية والعلمية . وتُقَدّر أعداد من حاكمتهم هذه المحاكم بثلاثمائة ألف كاتب، أُحرق منهم بالنار اثنان وثلاثون ألفا أحياء. يقول ولز : **" شهد القرن الثالث عشر تطور منظمة جديدة في الكنيسة ،هي محكمة التفتيش البابوية. ذلك أنّه جرت العادة قبل ذلك الزمان بأن يقوم البابا بتحقيقات عن الإلحاد في هذا الإقليم أو ذاك، ولكن انوسنت الثالث وجد في عهد الرهبان الدومينسكيين الجُدُد أداة قوية للقمع، ومن ثم نظمت الكنيسة محاكم التفتيش كأداة تحقيق مستديمة تحت إدارتهم "**.[٤١] يعني هذا النص أنّ محاكم التفتيش أصبحت الأداة الباطشة للكنيسة لانفاذ طغيانها الفكري على الناس. فقتلت وعذّبت وسجنت العلماء والمفكرين، ولم تأخذها في ذلك لومة لائم. ممّا أدى لقيام الصراع بين العلم والدين، وأخذت الهُوة تتسع بينهما يوما بعد يوم. لاسيما وأنّ العلم قد عمل على التغيير الإيجابي في حياة الناس بصورة ملموسة ، تبدّت في توفيره لسبل كسب العيش، ورفع مستوى معيشة الناس، وتوفير وتسهيل سبل التواصل والاتصال بينهم، والعمل على توفير الرفاه الاقتصادي والاجتماعي لهم، في وقت كانت الكنيسة تأخذ فيه الإتاوات منهم من غير أن تقدم لهم شيئا مقابلها.

لذلك لم يك هناك شك من وقوف الناس مع العلم حينما يحتدم الصراع بينه وبين الدين، الذي حوّلته الكنيسة من رسالة سلام ومحبة ومهبط للرحمة، إلى غول بشع يطارد الناس في يقظتهم ومنامهم . ويفرض عليهم الإتاوات والعشور، ويبيع لهم صكوك الغفران. ويفرض عليهم الخضوع المُذِلّ لرجال الدين، الذين يدّعون لأنفسهم قدسية ليست لبقية البشر، ويفرضون على الناس خرافات يعتبرونها أفكارا سماوية مقدسة لا يجوز الخروج عليها .

---

(٤١) ولز ، معالم تاريخ الإنسانية، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٩٠٨.

الثورة على الكنيسة :

مع مضي الوقت أخذ وعي الناس يزداد لاحتكاكهم بالثقافة العربية الإسلامية، مما جعل أغلبهم يرفض خرافات الكنيسة هذه ويضيق بطغيانها ذرعا الأمر الذي دفعهم لرفض الدين نفسه. وتحوّل هذا الصراع بعد حين من الدهر إلى صراع بين طبقتين ؛ طبقة تضم العلماء وعامة الشعب، وطبقة رجال الدين والإقطاعيين في الجانب الآخر. ومع الأيام رجحت كفة العلماء والشعب لتشتعل الثورة عارمة في فرنسا عام ١٧٨٩م ضد الكنيسة وسلطانها الغاشم ، ولتنشأ بها أول دولة علمانية في أوربا تقوم بطرد الدين كليا من حياتها.

وتوالت بعد ذلك الثورة على الكنيسة في كل الدول الأوربية، وانحصر وجود دولتها أخيرا في الفاتيكان . وأصبحت بذلك أوربا كلها علمانية تفصل الدين عن الحياة والمجتمع، فلا يتدخل في شأنه الاقتصادي ولا السياسي ولا الاجتماعي. كما قام العلم أيضا بمعزل عن الدين . وأخذت فرنسا في محو وإزالة المعارف والعلوم التي كانت سائدة في أوربا منذ ميلاد المسيح ، التي استندت على الدين حتى قيام الثورة الفرنسية من حياتها . ورجعت إلى ما كان موجودا بها قبل ذلك، وهي الثقافة اليونانية والرومانية واتخذتها مصدرا تستلهم وتستقي منه شئونها السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

يقول الأستاذ محمد أسد.[٤٢] **" لما تحرّر العقل الاوربي من عبوديته الأولي للكنيسة، تخطّي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تلك الحدود ، ووطّد عزمه تدريجيا على العداء لكل شكل من أشكال السلطان الروحي على الإنسان، لئلا تعود تلك القوة التي تدّعي هذا السلطان الروحي مرة ثانية للتغلب. ولذلك أقامت أوربا من نفسها زعيما لكل ما هو ضد الدين مبدئيا وعمليا ، ورجعت أوربا لإرثها الروماني "**.[٤٣] يعني هذا النص أنّ انتصار العلم في هذا الصراع بعد الثورة الفرنسية أقصي الدين

---

(٤٢) هو المستشرق النمساوي ليبولد فايس أسلم وسمي نفسه محمد أسد.

(٤٣) محمد أسد الإسلام على مفترق الطرق ترجمة مصطفي الخالدي ، القاهرة دار الاعتصام ص ٤٥.

من الحياة، وجعل أوروبا تقف مجتمعة لمواجهته والوقوف ضده. وأن تقيم حضارتها على التراث الوثني الروماني. والمعروف تاريخيا أنّ الرومانيين لم يعرفوا الدين وإنّما كانت آلهتهم التقليدية محاكاة للخرافات الموروثة عن اليونانيين ، التي لم يك يُسمح لها بالتدخل في شؤون الحياة، بل كان عليها فقط أن تنطق بالرجز على لسان عرّافيها إذا سئلت عن شيء. ولم يكن يطلب أو ينتظر منها أن تشرّع للناس سياسيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا . وأصبح هذا هو ذات مفهوم أوربا للنصرانية والدين عموما في الحياة والمجتمع. وقد أقامت على هدي ذلك نظامها العلماني الذي تحاول اليوم أن تفرضه على العالم بكل الوسائل والسبل الممكنة.

المبحث الثالث

دور الفلاسفة والمفكرين في بلورة منهج التفكير الغربي المادي

نشأة الكون وظهور الحياة :

اعتمادا على العقل والحواس فقط كوسائل للمعرفة ورفضا للوحي وما وراء الطبيعة عمل بعض فلاسفة ومفكري أوربا **" بعد تحرر العقل الأوربي من عبوديته للكنيسة ، وعمله على محاربة كل شكل من أشكال السلطان الروحي "** على إيجاد بديل لإله الكنيسة. فقال بعضهم إن الكون قديم أزليّ وأبدي ولم يخلقه إله وجعل بعضهم الصدفة سببا لنشأة الكون . والقول بأن عناصره قد التقت بالصدفة المحضة فشكلته على ما هو عليه . أما نشأة الحياة والأحياء فقد عزاها دارون.[٤٤] مرة للصدفة ومرة للطبيعة، وقال أنه ليس هناك قصد منها في الخلق بل لا قصد على الإطلاق وأن الطبيعة تخبط خبط عشواء ، ولم تقصد أن تخلق الإنسان الذي جاء نتيجة لتطور هذه الكائنات الحية عبر ملايين السنين من كائن أميبي حتى بلغ هذا التطور للحيوانات الفقارية التي يقف على قمتها الإنسان؛ مما يعني أنه حيوان كسائر الحيوانات ليست له روح ولا كيان مميز ولا خُلق خلقا مباشر كما تقول بذلك الكنيسة . الأمر الذي دعا الكنيسة لتكفيره وطرده من رحمتها. وزادت بذلك

(٤٤) عالم طبيعة انجليزي صاحب نظرية التطور (النشوء والارتقاء).

الشقة بينها وبين العلماء الذين تبنوا هذه النظرية فأقاموا عليها كل علومهم ونظرياتهم الأمر الذي جعل العقل إلها يعبد في أوربا من دون الله، وربما كان ذلك للأثر الإيجابي الذي أحدثه العلم في حياة الناس ، فنشأ بذلك الصراع بين العلم والدين. الذي أصبح السمة البارزة للفكر الغربي فيما بعد . واستنادا على نظرية التطور فقد أصبحت حيوانية الإنسان وماديته محورا تدور حوله جميع أبحاث العلماء ونظرياتهم التي شكلت الحياة في أوربا. فهذا فرويد.[٤٥] واستنادا على نظرية التطور يذهب إلى أن الغرائز هي التي تحرك الإنسان كما تحرك الحيوانات. وأن الجسد هو الحقيقة الإنسانية الوحيدة . فالإنسان بهذا المفهوم كتلة مادية هامدة تحركها قوى خارجية، فهو لا يتصرف من تلقاء نفسه بل يخضع لتصرفات تُفرض عليه كالجسم المادي الذي يظل ساكنا ما لم تؤثر فيه قوة من الخارج كما تقول علوم الفيزياء. كما ذهب فرويد أيضا إلى أن فكرة الإله نشأت أساسا في الماضي ليحمي بها الإنسان نفسه من قوى الطبيعة. كما يحتمي الأطفال بآبائهم من المخاطر. مما يعني أن الدين قد نشأ إبان طفولة الإنسانية أما وقد بلغت الإنسانية . مرحلة الرشد والنضج فلا حاجة لها به . وبهذا يكون الإنسان هو الذي يخلق الإله وليس العكس. ولذلك يصنّف فرويد الأديان بأنها وهمٌ من أوهام الجماهير. فالإنسان حينما يخلقها فهو يبحث عن مهرب من الواقع . أما نشأة العبادة فقد أرجعها إلى ما قبل التاريخ ، حيث افترض وجود أسرة مكونة من أب وأبناء وعدد من الزوجات، وكان هذا الأب يستأثر بهذه الزوجات دونهم. فلم يقبل ذلك الأبناء فتآمروا على الأب وقتلوه : ولكنهم سرعان ما شعروا بالذنب والندم وأرادوا أن يكفروا عن خطئهم فأحيوا ذكرى أبيهم. ومن هنا نشأت طقوس العبادة والتدين. وسار في ذات اتجاه مادية الإنسان وحيوانيته أميل دور كايم[٤٦] ، الذي أرجع ظهور الدين والتديُّن والإيمان بالله للمجتمع الذي اخترعها حتى يمكنه المحافظة على كيانه وحتى تتم طاعة أوامره طاعة مطلقة ، فأوامر الله إذن هي أوامر المجتمع. ولعل دور كايم

(٤٥) سجمندا فرويد عالم نفسي صاحب نظرية التحليل النفسي.

(٤٦) عالم اجتماع فرنسي.

فيما ذهب إليه كان متأثراً بآراء المفكر الفرنسي جان جاك روسو.[٤٧] وهو أحد الذين مهّدوا لقيام الثورة الفرنسية وقد عزا في كتابه **" العقد الاجتماعي "** نشأة القانون والدين للضرورة الاجتماعية.

ثم جاء كارل ماركس.[٤٨] فأكّد مادية الإنسان وحيوانيته في فلسفته وذاك حين قال لا إله والحياة مادة . ونقل التطور من الكائنات الحية - كما هو الحال عند دارون- إلى المجتمع الإنساني الذي لابد في زعمه من أن يمر بخمسة أطوار : هي طور الشيوعية الأولى ، طور الرّق ، الإقطاع ، والرأسمالية ثم الشيوعية الثانية. واعتبر وجود الدين في المجتمع خديعة من الأغنياء في هذا المجتمع ليستغلوا به الفقراء فيخدرونهم باسم الدين. لكي لا يطالبوا بحقوقهم. ولذلك قال : **" الدين أفيون الشعوب "**. وبذا فقد شكلت رؤي وأفكار هؤلاء المفكرين والفلاسفة منهج التفكير الغربي وصبغته بالصبغة المادية.

العوامل التي ساعدت في تعميق الروح المادية :

هناك عدة عوامل أدت إلى تعميق الروح المادية في الفكر الغربي منها مجيء عصر الصناعة وضجيج التقدم العلمي المادي الهائل وتسابق الأوربيين لاستعمار الشعوب ليعمّق الفراغ الديني والروحي ويدعم ويدفع توجه العقل الأوربي للتحرر كلية من الدين وعدم الإيمان إلا بما هو ملموس ومحسوس وذلك بما أخذته الحضارة الغربية من بعد مادي من الحضارة الرومانية التي اتخذتها كأحد المصادر التي تستلهم منها معارفها، يقول الأستاذ محمد قطب : **" أما الحضارة الرومانية فهي حضارة عبادة الجسد ولذائذه والرغبة في الاستغراق في المتاع الحسي بكل ألوانه، وفي الوقت ذاته هي حضارة الغلبة وحيازة القوة لإذلال الآخرين واستعبادهم "**.[٤٩] يشير هذا النص إلى أنّ الحضارة الرومانية اتسمت بالطغيان المادي والعسكري وورثت ذلك منها الحضارة الغربية، التي قامت نتيجة

(٤٧) مفكر فرنسي صاحب كتاب العقد الاجتماعي.

(٤٨) فيلسوف ألماني صاحب النظرية الماركسية التي قام عليها الإتحاد السوفيتي سابقا .

(٤٩) محمد قطب المستشرقون والإسلام ، مكتبة وهبة ، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ١٠٤.

أو أثرا من آثار الفلسفة العقلية والحسية المناوئة للكنيسة وللدين عموما . يقول محمد أسد في ذلك : **" ليس الذي مكّن الغرب من أن يبلغ هذا الرقي الباهر تفُوق كامن في النصرانية، وإنما هو في الحقيقة أثر من آثار مقاومة القوى العقلية في أوربا لكل مبدأ من مباديء الكنيسة "**.(٥٠)

يُفهم من هذا النص أنّ الحضارة الغربية مناهضة في جوهرها للكنيسة لاعتمادها على العقل والحواس فقط كوسائل للمعرفة وذلك لأن الثورة الفرنسية حينما رفضت النظام الكنسي أقامت بدلا عنه النظام العلماني بعد رجوعها للثقافة اليونانية والرومانية، فاتخذتهما مصدرا تستلهم منهما فلسفتها في الحياة فأخذت من اليونانيين الوجود الشكلي للآلهة التي لا يسمح لها بالتدخل في شؤون المجتمع، وأخذت من المدنية الرومانية اتجاهها المادي التام فيما يتعلق بالحياة الإنسانية وقيمتها الذاتية . وكانت بذلك ثورة على الرهبانية وكبت الرغبات الطبيعية في الإنسان واحتقار الدنيا الذي تدعو له الكنيسة. ولما رأت بعض الفرق الكنسية والكنائس، أنّ هناك خطرا يتهّدد وجودها في ظل هذه المتغيرات فضلت مجاراة العصر فأخذت تتنازل عن بعض عقائدها وطقوسها وتتساهل في بعض مبادئها لتتلاءم شيئا فشيئا مع الأحوال الاجتماعية والعقلية المتبدلة في أوربا. وهكذا فبدلاً من أن تؤثّر الكنيسة في حياة أتباعها. تأثرت هي بالمناخ الأوربي العلماني فسكتت عما أقرّه العرف الاجتماعي القائم على العقل والحواس، وكانت ستارا للمشروعات السياسية الناشئة . يقول في ذلك الأستاذ محمد أسد : **" ثم إنّ النصرانية اليوم في نظر السواد الأعظم معنى شكليٌّ فقط . كما كان حال آلهة روما. تلك الآلهة التي لم يكن يسمح لها ولا ينتظر منها أن يكون لها نفوذ حقيقي ما على المجتمع "**.(٥١) هذا النص لا ينفي أنَّ هناك أوربيين نصاري يحاولون أن يوفقوا بين عقيدتهم وبين روح حضارتهم ولكنهم قلة شواذ. ولكن السواد الأعظم منهم يعرف دينا واحدا هو التعبد للرقي المادي. أي الاعتقاد بأن ليس في

(٥٠) محمد أسد ، الإسلام على مفترق طرق ، مرجع سابق ، ص٤٦.
(٥١) محمد أسد، الإسلام علي مفترق ، مرجع سابق ، ص ٤٣.

الحياة هدف آخر سوي جعل هذه الحياة نفسها أسهل واسهل وتحقيق اللذة والتمتّع بمباهجها من غير التفات إلى أن هناك حياة أخرى يجب أن يعمل لها الإنسان.

المبحث الرابع

منهج التفكير الإسلامي

يقوم التفكير الإسلامي على الإيمان بالاختبار الوجداني أو الحدس بوجود قوة مبدعة تدبر هذا الكون. يقول الأستاذ محمد أسد : **" إنّ الاتجاه الديني مبني دائما على الاعتقاد بأنّ هنالك قانونا أدبيا مطلقا شاملا وأننا نحن البشر مجبرون على أن نرضخ له "**.[٥٢] يعني ذلك أن الإحاطة به فوق طاقة العقل البشري لطبيعته الجزئية الحادثة ، ووظيفته القاصرة على إدراك الماديات فقط. لذا فإن التفكير الديني هو السبيل الوحيد لإدراك الحياة كلها بشقيها الروحي و المادي، الذي يقوم على العقل والحواس ، على أنها وحدة في جوهرها وأن كل ما يحدث في الكون ليس خبط عشواء ، وإنما هو إرادة الله الواعي. وبهذا يدرك المسلم أن العلاقة بين الذات الإنسانية وبين الطبيعة من حوله التي تدرك وتعي وتفهم مثله تماما كما تشير إليه الآيات الآتية : ﴿ **وأوحي ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون** ﴾ [النحل : ٦٨]. وقوله تعالى : ﴿ **قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** ﴾ [النمل : ١٨]. وقوله تعالى : ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأرض وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً** ﴾ [الأحزاب : ٧٢]. وقوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ** ﴾ [النمل : ١٦]. وخاطب الهدهد سيدنا سليمان : كما في قوله تعالى : ﴿ **فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ** ﴾ [النمل : ٤٢]. وقوله تعالى : ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إلا يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** ﴾ [الإسراء : ٤٤]. وقول الرسول ﷺ **" أُحُد جبلٌ يحبّنا**

(٥٢) محمد أسد ، الإسلام على مفترق الطرق مرجع سابق ، ص ٤٧.

ونحبه ".[٥٣] فلا اختلاف بين إدراك الإنسان وكائنات الطبيعة لله سبحانه وتعالى وإنما هي مظهر من مظاهر إرادته المبدعة التي اقتضت ذلك . يقول الأستاذ محمد أسد : **" وعلى ضوء النظر الديني والاختبار نجد أنّ الذات الإنسانية العارفة ، والطبيعة الخرساء المسلوبة في ظاهرها من التبعة ، تجتمعان معا في نسب من الانسجام الروحي. فإنّ الوعي الفردي في الإنسان والطبيعة التي تحيط به وتملؤه ليسا وإن اختلفا سوي مظهرين متكاملين للإرادة المبدعة الواحدة بعينها "**.[٥٤] بهذا يدرك الإنسان أنه جزء محدود ، في عالم غير محدود الشيء الذي يعمّق إحساسه بوحدانية الله وقدرته . ويدرك أنّ الطريقة المثلى التي يستطيع بها أن يعيد وحدته الفكرية والعملية في الحياة هي التوفيق التام بين الوجهتين الروحية والمادية في حياته، بحيث يسود هنا الاعتبار الديني في كل شيء ويظهر في أساس كل شيء بعكس الفكر المادي الذي يجعل هدفه الذاتي كشف كوامن الطبيعة والسيطرة عليها من غير أن ينسب إليها حقيقة أدبية في ذاتها أو الخوض في معناها والغاية منها, باعتبار أنّ هذه الأشياء ليس لها فائدة عملية ، وإنما المهم فقط كيفية السيطرة عليها وتسخيرها للإنسان.

العقل في التصور الإسلامي :

إن دور العقل في التصور الإسلامي هو إدراك آيات الله المنشورة في الكون. وفي فهم الوحي وكيفية تطبيقه والاجتهاد في استنباط الأحكام لما ليس فيه نص. أو ما يستجد في حياة الناس. إضافة إلى دوره كوازع يردع النفس عن اتباع الشهوات. كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾ [الأعراف : ٢٠١]. والتصور الإسلامي لا يفرض على العقل إلا ما يحتمله بسهولة وليس فيه شيء مخالف له ، والعقل يعرف حدوده ويعرف أنه حادث وجزئي وأن ثمة أشياء وراء حدوده لا يحتاج إليها في وظيفته التي هي إعمار الأرض التي عبر الله عنها بالخلافة لذا لم

---

(٥٣) حديث شريف صحيح البخاري حديث رقم ١٤٨١.

(٥٤) محمد أسد ، الإسلام على مفترق الطرق ، مرجع سابق ، ص ١٨.

يمنح القدرة على إدراكه لأفعال الله ولكنه موهوب أن يدرك إمكانها يقول الله تعالى : ﴿ **قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ [آل عمران : ٤٧]. فالله سبحانه وتعالى في هذا النص لم يوضح الكيفية لأنها فوق الإدراك البشري ولأن كيفيات أفعاله تختلف عن كيفيات أفعال البشر . وفيما عدا هذه الجوانب فإن القرآن يدعو الإنسان للتدبر والتفكر والنظر والاعتبار وإيقاظ الفكر. ودفعه للعمل، وإطلاقه من الخرافات والأوهام. ويوجهه إلي سنن الله في الأنفس والآفاق لإدراك طبيعة هذا الكون وطبيعة هذا الإنسان وسنن الله في الحياة البشرية المعروضة في التاريخ . فالله منح الإنسان القدرة على إدراك قوانين المادة والتعرف على طاقات الكون. لأن هذا داخل في إطار وظيفته كخليفة في الأرض ، فجاءت طبيعة تكوين العقل الإنساني لهذا الغرض فهو سيتقدم في إدراك قوانين المادة وتسخيرها . وسيتقدم في معرفة بعض الجوانب عن حقيقة الإنسان ولكن ستظل خافية عليه الحقائق الكبرى كالالوهية وتعلق الارادة الالهية بخلق الحوادث التي لا سبيل لمعرفتها إلا بالوحي ، ولذلك كانت مصادر المعرفة في التصور الإسلامي هي الوحي والعقل والحواس التي يكمل ويدعم بعضها بعضا ولا تصادم بينها لأنها كلها من آثار الله. يقول محمد عبده : - **" فالوحي بالرسالة الإلهية أثر من آثار الله ، والعقل الإنساني أثر أيضا من آثار الله في الوجود وآثار الله يجب أن ينسجم بعضها مع بعض ولا يعارض بعضها بعضا ".**[٥٥] إنّ هذا النص لا يُفهم منه أنّ الوحي والعقل ندان فالوحي هو الأصل الذي يرجع إليه العقل ، ليصحّح به اختلالاته وانحرافاته. لأن إطلاق كلمة **" العقل "** يرد الأمر إلى شيء مثالي وغير واقعي فهناك عقلي، وعقل زيد وعمرو، وليس هناك عقل مطلق لا يشوبه النقص والهوى. ولذا فهو ليس الحكم الأخير ما دام هناك نص محكم. فالمدلول الصريح للنص من غير تأويل هو الحكم. وعلى العقل أن يتلقى مقرراته هو من مدلول هذا النص الصريح ويقيم منهجه على أساسه.

(٥٥) راجع محمد عبده- تفسير المنار ، دار المعرفة ، بيروت، لبنان، ١٩٩٠م ، جزء ١ ، ص ١٧٥.

إن التصور الإسلامي يقوم على التوفيق بين النواحي الخُلُقية والمادية في حياة الإنسان. يقول الأستاذ محمد أسد : **" كان ﷺ شديد الاهتمام بالحياة الإنسانية في كلا اتجاهيها ؛ في المظهر الروحي والمظهر المادي. لذا فهو يقول : - " اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا ""** . وكما أنّ حياة المسلم يجب أن تقوم على التعاون التام المطلق بين ذاته الروحية وذاته الجسدية .. أي على أنها مجموع أعمق للمظاهر الخُلُقية والعملية والشخصية والاجتماعية[٥٦] يفهم من هذا النص أنّ الإسلام يحمل الإنسان على توحيد جميع نواحي الحياة كما جاءت في القرآن والسنة من غير زيادة ولا نقصان طالما ارتضى الإنسان هذا الدين منهجا لحياته في كل ناحية من نواحيها. يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾ [الأحزاب : ٣٦]. ويقول تعالى أيضا : ﴿ **فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً** ﴾ [النساء : ٦٥]. لذا يعتبر الإسلام أسمى من سائر النظم الاجتماعية لأنه لا يهتم فقط لما في طبيعة الإنسان من الاستعداد للسمو والرفعة. ولكنه يهتم أيضا لما فيها من قيود طبيعية تقعده، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٧٦].

إن مفهوم التقدم العلمي والتقني في الفكر الغربي يقوم على أساس أن الكون عدوٌ للإنسان ، من الواجب أن يقهره ويقف في وجهه ويتحداه . يقول محمد قطب : **" أما الحضارة الإغريقية فقد كانت تصور العلاقة بين الإنسان وبين الإله على أنّها علاقة صراع وحقد متبادل ، فالإنسان يريد أن يثبت ذاته بتحدي الإله وعصيانه ، والإله يريد أن يحطم الإنسان غيرة منه لأنه قد شاركه في المعرفة وفقا لأسطورة برمثيوس ".**[٥٧] -

(٥٦) محمد أسد ، الإسلام على مفترق الطرق ، مرجع سابق ، ص ٨٨.

(٥٧) برمثيوس أحد آلهة الإغريق سرق النار المقدسة التي هي المعرفة وسلمها للإنسان في الأرض فلما عرف كبير الآلهة زيوس أراد أن ينتقم من الإنسان ، فأرسل له مخلوقة أنثي لتؤانسه ولكن أرسل ←

سارق النار المقدسة -.[٥٨] يُفهم من هذا النص أنّ الصراع مع الطبيعة الذي نجده في الفكر الغربي أيضا من الموروثات اليونانية. بينما المؤمن يرى في الكون مخلوقا سخّره الله له وينبغي أن ينسجم معه ويتوافق معه ، وذلك لمعرفة وتفهُّم القوانين التي تحكم ظواهره ، والإنسان المادي يستخدم العلم والتكنولوجيا وسيلة للاستعلاء والاستكبار والظلم والطغيان في الأرض، كما نراه اليوم في الغرب والشرق على السواء، وكما كان من قبل في الحضارة الرومانية. ويُقاس هذا التقدم المادي في الغرب بمقدار ما يحققه من لذة بصرف النظر عنها طيبة كانت أم خبيثة ، فاسدة كانت أم صالحة. ولكن هذا لا يجوز وفقا للتصور الإسلامي لأنّ الله قد أحلّ الطيبات وحرّم الخبائث، كما قال جلّ وعلا ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِّ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ** ﴾ [الأعراف : ٣٢]. وقال تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِّ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً** ﴾ [الأعراف : ٣٣]. لأن الإنسان حينما يتصرف في مخلوقات الله بخلاف ما أمر فإنه يفسدها ، والتصور الإسلامي يدعو للتزكية كما قال سبحانه : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا** ﴾ [الشمس : ٩]. وهي المحافظة على الصورة الجميلة والخصائص الطبيعية للأشياء ، أو السير بها قدما على منهج الله ، وإصلاح ما افسد ، بتغيير طبيعته وغرضه. يقول الله تعالى : ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [الروم : ٤١]. وبذا يتضح أن العلم وحده بمعزل عن الإيمان والقيم والتصورات الصحيحة بطبيعة الكون يفسده ، والدليل على ذلك أن النظم الغربية قد فشلت في إعطاء نظام للحياة يُسعد الإنسان ، حيث نشهد الحروب الطاحنة بين الدول الغربية فيما بينها ، وتفشي الأمراض العصبية والنفسية، والانتحار والاغتصاب رغم الحرية الجنسية التي يكفلها القانون. كما قال الشاعر حافظ إبراهيم[٥٩]

←

معها صندوقا هدية للإنسان، فلما فتحه فإذا هو مملوء بالشرور التي قفزت منه وملأت به وجه الأرض وبذا بدأ الصراع بين الإله وبين الإنسان.

(٥٨) محمد قطب ، مرجع سابق ، ص ١٠٣.

(٥٩) حافظ إبراهيم شاعر مصري معاصر يعرف بشاعر النيل.

والعلم إن لم تكتنفه شمائل تعليه كان مطية الإخفاق

لا تحسبن العلم ينفع وحده ما لم يتوج ربه بخلاق.[٦٠]

إن التصور الإسلامي يدعو الإنسان للسيطرة على الطبيعة ولكن لا لتحقيق الرفاهية المادية فقط بل باعتبارها عبادة لله سبحانه وتعالى الذي تسبح له المخلوقات يقول الله : ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إلا يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** ﴾ [الإسراء : ٤٤]. وقد عبر الله عن هذه السيطرة بالخلافة حيث يقول الله تعالى : ﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً** ﴾ [البقرة : ٣٠]. ويقول ﴿ **هو الذي أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها** ﴾ [هود : ٦١]. فوظيفة الإنسان إذن هي العمل على تعمير الأرض واستخراج خيراتها وقد سخرها الله له بما عليها يقول جلّ وعلا ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأرض جَمِيعاً** ﴾ [الجاثية : ١٣]. ويقول تعالى : ﴿ **وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ** ﴾ [يس : ٧٢]. ويقول المولى عزّ وجل : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إلا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات : ٥٦]. ويقول سبحانه : ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنعام : ١٦٢]. فكل حياة الإنسان في التصور الإسلامي وما بها من شعائر وشرائع وتصورات ، ومن كدح في طلب الرزق خدمة لنفسه وأهله والناس فهي عبادة لله ، ولما كان تعمير الأرض والسيطرة على الطبيعة لا يكون إلا بالعلم . فقد فطر الله الإنسان على حب المعرفة والتعلم لذا فإن أول ما نزل على الرسول ﷺ ، هو الحث عليها ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** ﴾ [العلق : ١]. مما يشير إلى أهمية العلم والمعرفة وإنهما يكونان بالاكتساب ومن هنا فقد جعل الرسول ﷺ طلب العلم فريضة كما في قوله : **" طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة "**.[٦١]

---

(٦٠) ابراهيم حافظ ، ديوان حافظ ابراهيم ، دار العودة بيروت لبنان ١٩٣٧م ، نقلا عن قصيدة العلم والأخلاق.

(٦١) البخاري ، صحيح البخاري ، مطبعة بولاق ، القاهرة ١٣٨٩هـ ، حديث رقم ٣٩١.

يقول الإمام الشافعي :

تعلم فليس المرء يولد عالماً وليس أخو علم كمن هو جاهل.[٦٢]

ودعا الله الإنسان للتفكر والتدبر وإعمال الذهن، كما في قوله تعالى : ﴿ **أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٨) وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ** ﴾ [الغاشية : ١٨-١٩]. وقوله جلّ وعلا ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأرض وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأرض لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ [البقرة : ١٦٤]. وقوله سبحانه ﴿ **أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِّ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً** ﴾ [النساء : ٨٢]. وغيرها من الآيات الكثيرة التي تدعو لذلكَ ، كما أنّ الفريضة في التصور الإسلامي عبادة. إذن فالإسلام لا يرفض الرفاهية المادية التي يمكن تحقيقها للإنسان**" الجسد "** ، ولكن يرفض أن تكون هي غاية الإنسان في الحياة ، ومقياسا لرقيه. فهي مظهر الرقي الخارجي للإنسان ، والتصور الإسلامي يهتم أيضا بالرقي الداخلي للإنسان ، وذلك بتزكية نفسه وقيام حياته على الأخلاق والقيم.

الطبيعة الإنسانية :

يقوم التصور الإسلامي على أساس أنّ الأصل في طبيعة الإنسان الخير فهو قد خُلقَ طاهرا وتاما قال تعالى : ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الْإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ﴾ [التين : ٤]. ولكن الجحود وترك الأعمال الصالحات يهدمان هذا الكمال الأصلي والذي يمكن استعادته إذا أدرك الإنسان وحدانية الله وتقيد بشرائعه يقول تعالى : ﴿ **ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ [التين : ٥-٦]. على عكس النصرانية التي تقول : إنّ الإنسان خُلق خاطئا ، وعلى عكس ما تقوله الهندوكية بأنّ الإنسان كان في أول أمره

(٦٢) الإمام محمد بن إدريس الشافعي ديوان الجوهر النفيس في شعره ، حمدية إدريس ، مكتبة ابن سينا للنشر، مصر الجديدة ، قافية اللام- الدعوة إلى التعلم ، ص ١٨.

دنسا فهو من أجل ذلك محمول على أن يتخبط في سلسلة من التقمص نحو هدفه الأقصى من الكمال ، ولذلك الشّر في الإسلام ليس أصيلا، ولكن يكتسبه الإنسان في حياته بسوء استخدام حريته بإساءة التصرف بتلك الصفات الإيجابية الغريزية التي وهبها الله لكل إنسان يؤكد هذا المعني حديث الرسول، ﷺ ، **" كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجّسانه "**.(٦٣)

الخاتمة :

خلص هذا البحث إلى أن منهج التفكير الغربي المادي قد شكلته عدة عوامل يمكن اجمالها في الآتي :

أولاً : تحريف وتبديل النصرانية على يد الإمبراطور قسطنطين والحوار بطرس فلم تكن هي الدين الذي نزل على المسيح عليه السلام فقد أخضعها الامبراطور لوثنيته بدلاً أن يخضع لها ثم أخذت المجامع الكنسية الخاصة والعامة تضيف لها حتى أصبحت النصرانية دين الكنيسة أكثر من كونها دين الله مما جعلها مناقضة ومصادمة للعقل والمنطق والطبيعة البشرية الشئ الذي دفع بعض العلماء للتشكيك في هذه العقائد والخروج عليها وكان رد فعل الكنيسة نحوهم عنيفا فقد عذبت بعضهم وأحرقت البعض الآخر أحياء مما أدى إلى نشوب الصراع بين العلم والدين.

ثانياً : انتصار العلماء في صراعهم مع الكنيسة والقضاء التام على سلطانها بعد الثورة الفرنسية ١٧٨٩م جعلهم يرفضون كل تراثها الفكري والثقافي ويكفرون بآلهةا وما وراء الطبيعة عموما ويتخذون العقل الها بديلا عنه ولم يعودوا يؤمنون إلا بما هو ملموس محسوس أي قائم على العقل والحواس ويصبحون بذلك قادرين على إدراك نتف من الحياة تزداد بازدياد معرفتهم بعالم الطبيعة وينتفي لديهم كل بعد غيبي.

(٦٣) حديث شريف ابن حبان، أحمد بن حبان بن معاذ، دار المعارف ١٩٥٢م.

ثالثاً : اتخاذ الفكر الغربي المادي من الثقافتين اليونانية والرومانية بعد الثورة الفرنسية مصدرا يستلهم منه شؤونهم في الحياة فأخذ من اليونانيين الوجود الشكلي للآلهة التي لم يك يسمح لها بالتدخل في شؤون المجتمع واخذ من المدنية الرومانية اتجاهها المادي التام في ما يتعلق بالحياة الإنسانية وكانت بذلك ثورة على الرهبانية وكبت الرغبات الطبيعية في الإنسان واحتقار الدنيا الذي تدعو له الكنيسة.

رابعاً : إقامة العلوم والمعارف على أسس مادية صرفة بما فيها العلوم الاجتماعية التي جعلت محور دراستها يقوم على مادية الإنسان وحيوانيته.

أما منهج التفكير الإسلامي فهو يتفق مع المنهج الغربي المادي بجعل العقل والحواس مصدرين للمعرفة ويختلف معه بجعل الوحي مصدراً أسمى للمعرفة فهو يهدي الإنسان إلى تقديم تفسير شامل للحياة بوجود قوة سامية تدير هذا الكون وليس هناك في هذا المنهج ما يمنع الإنسان من البحث في حقائقه وأسراره اعتماداً على العقل والحواس ليتم توظيف نتائج هذا البحث لخير الإنسان لاسيما وأن الله قد خلق هذا الكون من أجله وسخره له لتحقيق الخلافة في الأرض بإعمارها وفقاً لعهد الله وشرطه موظفا ما زود به من عقل وحواس ليستعين بهما في استنباط العلوم والقوانين والسنن التي تحكم عالمي الانفس والآفاق.

المراجع :

[١] القرآن الكريم.

[٢] عمر إبراهيم أحمد ، مدخل إلى نظرية المعرفة في الإسلام، المعهد العالمي للفكر الإسلامي الخرطوم ١٩٨١م .

[٣] الترمذي أبو عيسى محمد بن عياض ، صحيح الترمذي ، دار سحنون ، القاهرة، ١٩٩٢م

[٤] ابن حزم – الإحكام في أصول الأحكام – تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر- دار الأوقاف الجديدة – بيروت - ١٩٨٣م –

[٥] ابن حزم ، الفصل في الملل والاهواء والنحل تحقيق عبدالرحمن خليفة طبعة القاهرة.

[٦] ابن حزم ، التقريب لحد المنطق تحقيق ، دكتور إحسان عباس ، دار العباد، بيروت [د. ت].

[٧] الشافعي محمد بن إدريس ، ديوان الجوهرة ، النفيس في شعر الإمام محمد بن إدريس مكتبة ابن سينا للنشر مصر الجديدة [د.ت].

[٨] أسد محمد ، الإسلام على مفترق الطرق. ترجمة مصطفى الخالدي ، دار الجهاد القاهرة . بدون تاريخ .

[٩] الشيخ محمد عبده ، تفسير المنار ، دار المعرفة ، بيروت، لبنان ١٩٩٠م ج ١.

[١٠] ابن حبان ، حمد بن حبان ، صحيح ابن حبان ، دار المعارف ، مصر ١٩٥م

[١١] إبراهيم حافظ ، ديوان حافظ إبراهيم ، دار العودة بيروت لبنان ١٩٧٧م .

[١٢] ابن ماجة، أبوعبدالله محمد بن يزيد ، صحيح ابن ماجة ، القاهرة، ١٢١٣هـ .

[١٣] بريفولث ، بناء الإنسانية ، ترجمة أبو النصر أحمد الحسيني ١٣٣٨هـ.

[١٤] قطب محمد ، المستشرقون والإسلام، مكتبة وهبة القاهرة، ١٩٩٩م .

[١٥] البخاري ، محمد بن إسماعيل ، صحيح البخاري ، مطبعة بولاق ، القاهرة ١٣٨٩هـ.

[١٦] أبو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، دار القلم دمشق ، ١٩٧٢م
[١٧] إقبال محمد ، تجديد الفكر الديني ترجمة عباس محمود العقاد، القاهرة ١٩٦٥م
[١٨] كشك محمد جلال، الغزو الفكري، دار الفكر بيروت ١٩٩٥م
[١٩] كشك محمد جلال الدين ، القومية والغزو الفكري، دار الفكر بيروت ١٩٩٥م
[٢٠] قطب محمد، الإنسان بين المادية والإسلام ، دار الشروق القاهرة ١٩٩٩م
[٢١] قطب محمد، التطور والثبات في الحياة البشرية، دار الشروق القاهرة ١٩٩٩م
[٢٢] زروق عبدالله حسن ، العلم التجريبي في الإسلام، مركز أبحاث الإيمان الخرطوم ١٩٩٣م
[٢٣] أبو ريان محمد علي ، تاريخ الفكر الفلسفي ، القاهرة ١٩٨٧م
[٢٤] ابو زهرة محمد ، النصرانية ، دار المعارف القاهرة ١٩٨٣م
[٢٥] جون وليام دريب ، الصراع بين العلم والدين ترجمة عبدالكريم ناصيف نشر دار الفرقد للطباعة والنشر ١٩/١٢/٢٠١٩
[٢٦] ه.ب ولز معالم تاريخ الإنسانية ترجمه عبدالعزيز توفيق ٢٦/٧/٢٠١٢
[٢٧] إنجيل متى
[٢٨] إنجيل يوحنا
[٢٩] ابن تيمية ، الجواب الصحيح دار الأزهر ١٩٥٤م